الفصل الأول

الهواء الصناعي

استيقظ على صوت ناعم يأتي من الجدران.

لم يكن منبّهًا عاديًا. كان همسًا إلكترونيًا مبرمجًا ليبدو بشريًا قدر الإمكان: «درجة الحرارة مثالية. نسبة الأكسجين مضبوطة. حان وقت الاستيقاظ».

فتح عينيه ببطء. السقف فوقه رمادي لامع، ينعكس عليه ضوء أبيض بارد ينساب من شقوق دقيقة في الجدران. لم يكن هناك نوافذ حقيقية في غرفته. النوافذ رفاهية قديمة، وكانت الطبقات العليا فقط هي التي تمتلكها. هو يسكن في الطبقة السابعة عشرة، حيث يُستبدل الضوء الطبيعي بمحاكاة دقيقة لا تخطئ أبدًا في مواعيد الشروق والغروب.

تنفّس.

الهواء دخل إلى رئتيه نظيفًا، خاليًا من أي رائحة، معدّلًا كيميائيًا ليكون «مثاليًا للصحة البشرية». هكذا كانت تسميه اللوحات الإعلانية المنتشرة في كل مكان. لكنه لم يعد يشعر بهواء. كان يشعر بمادة تدخل وتخرج، باردة ومنظمة وخالية من أي مفاجأة.

نهض من الفراش الذكي الذي كان قد عدّل صلابة سطحه أثناء الليل حسب قراءة نبضه. مشى حافي القدمين على الأرضية الدافئة قليلًا، ووقف أمام المرآة الشفافة. الوجه الذي نظر إليه كان مألوفًا: شاب في أوائل الثلاثين، شعر أسود قصير، عينان لونهما بني داكن، وملامح هادئة تكاد تكون فارغة.

«صباح الخير»، قال لنفسه بصوت منخفض، كأنه يجرّب إن كان الصوت ما زال يشبهه.

الملابس كانت جاهزة على الكرسي الآلي. قماش خفيف مصنوع من ألياف ذكية تتكيف مع حرارة الجسم. ارتداها دون أن ينظر إليها كثيرًا. ثم اتجه إلى وحدة الطعام.

ضغط على زر واحد.

خرج من الفتحة الصغيرة صحن أبيض يحتوي على مكعبات بألوان باهتة: بروتين مركّب، كربوهيدرات معدّلة، وفيتامينات مضافة بنسب محسوبة بدقة. لا طعم حقيقي. لا رائحة تثير الشهية. فقط مادة تُبتلع ليبقي الجسد يعمل.

أكل ببطء، وهو ينظر إلى الجدار المقابل الذي يعرض الآن نشرة الصباح: أسعار الطاقة، تحديثات الطقس الصناعي داخل الغطاء البلوري، وإعلان عن حديقة عمودية جديدة في الطبقة الخامسة والعشرين تعد الزوار بـ«تجربة طبيعية كاملة».

ابتسم ابتسامة صغيرة مرة.

أنهى طعامه، غسل يديه بالماء المعاد تدويره، ووقف لحظة أمام الباب قبل أن يفتحه.

الممر خارجًا كان طويلًا ومضيئًا بنفس الضوء الأبيض. أناس يمرون بسرعة، وجوههم مائلة إلى شاشات صغيرة مدمجة في أيديهم أو عيونهم. لا أحد ينظر إلى أحد. الصوت الوحيد هو همس الخطوات على الأرضية الصناعية وSorير خفيف للأبواب الأوتوماتيكية وهي تنفتح وتُغلق.

سار نحو محطة المصعد الجماعي.

في الطريق، مرّ بجوار لوحة كبيرة تعرض صورة لغابة قديمة، الأشجار فيها خضراء كثيفة، والسماء زرقاء صافية. تحت الصورة جملة مكتوبة بخط أنيق:

«الطبيعة كما كانت... الآن في متناولك. احجز تجربتك الافتراضية اليوم.»

توقف ثانية واحدة أمامها.

شيء في صدره ضغط عليه بلطف، كيد غير مرئية. لم يكن ألمًا. كان أقرب إلى فراغ صغير يفتح فجأة ثم يُغلق.

تنهّد، وواصل السير.

المصعد كان مزدحمًا. وقف في الزاوية، ظهره إلى الجدار الزجاجي الشفاف الذي يطل على طبقات المدينة الهائلة وهي تمتد إلى ما لا نهاية تحتهم وفوقهم. أعمدة صلب، جسور معلقة، أضواء لا تنطفئ، وضباب خفيف من الأبخرة الصناعية يتصاعد من المستويات السفلية.

نظر إلى كل ذلك، وسأل نفسه بصمت السؤال الذي كان يتجنبه منذ أسابيع:

«هل كان العالم دائمًا هكذا؟»

لم يجب أحد.

والهواء الصناعي استمر في الدخول والخروج من رئتيه، نظيفًا، مثاليًا، وخاليًا من أي روح.

الفصل الثاني

الجلسة الأولى

كان مكتب الطبيب النفسي في الطبقة التاسعة والعشرين، حيث يصبح الهواء أفخر قليلًا والإضاءة أكثر دفئًا. الغرفة واسعة، جدرانها بلون رمادي فاتح، ونافذة عريضة تطل على المدينة الممتدة بلا نهاية تحت الغطاء البلوري.

جلس الطبيب خلف مكتبه الأنيق. كان طويل القامة، نحيفًا، وجهه مشدود بشكل غريب، وشفتاه رقيقتين تتحركان ببطء كأنه يختار كلماته مسبقًا. عيناه باردتان وقاسيتان.

قال بصوت أجش هادئ:

«ما الذي تريده تمامًا يا سيدي؟»

أمامه جلس الشاب قصير القامة، شاحب الوجه، يبدو القلق في عينيه الحذرتين. كانت يداه ترتعدان وهو يتكلم.

«أريد شيئًا حقيقيًا... شيئًا لم يصنعه الإنسان. أريد الاحتفاظ به... فقط أراه أو ألمسه... حتى أدرك أنه موجود.»

صمت. وتفرس في وجه الطبيب النفسي ثم أردف في ضعف:

«أين يمكنني أن أجد مثل هذا الشيء؟»

ارتسمت الدهشة على وجه الطبيب. فهذا أول طلب من نوعه... شيء حقيقي!!

كوّرت شفتاه الكلمة... وكأنها غريبة عن المفردات اللغوية التي تعلمها. وتساءل:

«ولماذا تريد أن ترى هذا الشيء... الحقيقي؟»

تطرّق اليأس إلى قلب الشاب. كيف يمكن أن يشرح في كلمات ما يحسه؟ تلك الرغبة الجارفة التي تكاد تعصف به.

نظر — خلف الطبيب النفسي — عبر النافذة العريضة إلى المدينة الهائلة... مدينة القرن الثاني والعشرين وهي تمتد بلا نهاية. أخذ يحدّق في الأعمدة والمباني العالية المصنوعة من الصلب والبلاستيك... والتي تغطي الأفق... والغطاء البلوري الذي يغلف المدينة كلها حفاظًا عليها من التلوث ويعزلها عن الكون.

قال بصوت مفعم بالحزن... وكأنه يحدث نفسه:

«كل ما حولي... دنيا صنعها الإنسان. المدينة التي نعيش فيها... الهواء الصناعي الذي نتنفس... الملابس التي نرتديها... حتى الطعام من إنتاج تكنولوجيا البشر الرائعة... في كل مكان... أرى دليلًا على قدرة الإنسان ومهارته.»

تريّث للحظات ثم استطرد:

«ولكن أين أجد القلب؟ ... بين هؤلاء البشر المتهمين... وتلك المباني والأعمدة المصنوعة من الصلب والبلاستيك... كيف يمكن أن يفهموا ما أحس به؟ ... لابد أن هناك مكانًا ما... مكانًا صغيرًا... لم تصله حضارة الإنسان!»

تطلع إلى السقف الرمادي... المتألق بألوان الطيف من مكان مجهول:

«لم يكن الحال هكذا دائمًا... حتى أنا أدرك هذا... لابد أنني ولدت في العالم القديم... فلا زلت أذكر الأشجار... والزهور... وصوت الطيور... والأنهار... والأمطار...»

وضع رأسه بين يديه، ثم استطرد بصوت أكثر انخفاضًا:

«إني اليوم أتساءل ما هي السحب؟ ... فليس لها مكان في ذلك العالم الذي صنعه الإنسان... وعزله عن باقي الكون... السحب الرائعة... أين ذهبت؟ ... لم يعد هناك شتاء ولا صيف... لا ربيع ولا خريف... فقط مناخ صناعي ثابت... لا يتغير.»

ابتسم الطبيب النفسي في حيرة.

«يؤسفني ألا أستطيع مساعدتك.»

ثم أضاف بعد صمت قصير، وهو يدون شيئًا على الشاشة الشفافة أمامه:

«ما تعانيه... يُصنف حاليًا ضمن اضطرابات الحنين غير التكيفي. شائع أكثر مما تظن في بعض الطبقات. لدينا بروتوكولات علاجية فعالة.»

الشاب رفع رأسه ببطء. عيناه كانتا أكثر حزنًا الآن.

«علاج؟ ... تعني أن تجعلني أنس؟»

الطبيب لم يجب مباشرة. فقط نظر إليه نظرة مهنية طويلة، ثم قال بهدوء:

«نعيد ضبط الأولويات... لتصبح أكثر انسجامًا مع الواقع الذي نعيشه.»

خرج الشاب من المكتب بعد نصف ساعة.

الممر كان مضيئًا ونظيفًا كالعادة. الناس يمرون بسرعة. لا أحد ينظر إليه.

لكن شيئًا في داخله كان قد تغيّر.

لأول مرة سمع أحدهم ما يقوله...
ولأول مرة أُعطي لاسمه الطبي:
اضطراب.

الفصل الثالث

الرمادي اللانهائي

عاد إلى حياته كما لو أن الجلسة لم تحدث.

في الصباح التالي ركب المصعد الجماعي مع عشرات الآخرين. الجميع يقفون في صمت، عيونهم مثبتة على شاشات صغيرة أو على لا شيء. المصعد يهبط بسرعة محسوبة، ويتوقف في كل طبقة لثوانٍ معدودة قبل أن يواصل النزول. الهواء داخل الكابينة كان أثقل قليلًا، مشبعًا برائحة المعدن النظيف والمعطّرات الصناعية التي تُرشّ كل ساعة.

نزل في الطبقة الرابعة عشرة، حيث يقع مركز البيانات الذي يعمل فيه.

المكان شاسع وبارد. صفوف لا نهائية من المحطات الشفافة، كل واحدة منها تشغّلها يد بشرية تتحرك ببطء فوق لوحات لمس. عمله بسيط: مراقبة تدفق المعلومات، تصحيح الأخطاء الطفيفة التي تفلت من الأنظمة الآلية، والتأكد من أن النماذج التنبؤية تعمل بكفاءة. لا أحد يتحدث إلا عند الضرورة. الأصوات البشرية نادرة وخافتة، كأن الكلام نفسه أصبح رفاهية غير ضرورية.

في استراحة منتصف اليوم، جلس في القاعة المشتركة. المقاعد متطابقة، والطاولات لامعة بلا خدوش. الناس من حوله يأكلون مكعبات الطعام نفسها، ويحدقون في الشاشات نفسها. لا أحد يضحك بصوت عالٍ. لا أحد يروي نكتة. حتى الخلافات — إن وجدت — تُحل بهمسات قصيرة أو برسائل إلكترونية صامتة.

نظر إلى الوجوه.

كانت متشابهة بطريقة غريبة. ليس لأن الناس يبدون متطابقين جسديًا، بل لأن تعبيراتهم كانت واحدة: هدوء مصطنع، عيون شبه فارغة، وابتسامات صغيرة تُرفع وتُخفَض في اللحظات المناسبة فقط. كأنها أقنعة رُكّبت بعناية لتناسب الوظيفة الاجتماعية.

بعد العمل ركب القطار الطبقي المتجه إلى الطبقة السابعة عشرة.

القطارات تسير على مسارات معلقة داخل أنابيب شفافة. من خلالها يمكن رؤية المدينة وهي تنزلق تحتهم وفوقهم: جسور، أبراج، أضواء لا تنطفئ، وضباب صناعي رمادي يتصاعد من المستويات السفلية كأنه يتنفس. في المقصورة التي يجلس فيها، الشاشات تعرض إعلانات مستمرة عن منتجات جديدة، عن تجارب افتراضية، عن «حياة أفضل داخل النظام».

في إحدى المحطات صعدت امرأة مسنّة. جلست في المقعد المقابل له. للحظة تقاطعت نظراتهما. كانت عيناها تحملان شيئًا مختلفًا... شيئًا يشبه التعب القديم أو الحزن القديم. ثم أدارت وجهها بسرعة نحو النافذة، وكأن النظر إلى إنسان آخر أصبح فعلًا غير لائق.

نزل في محطته.

الممر إلى شقته كان كالعادة: طويل، مضيء، نظيف، وخالٍ من أي مفاجأة. الأبواب تنفتح وتُغلق بصوت واحد. الروائح معدومة. الحرارة ثابتة. حتى صوت خطواته على الأرضية كان مكتومًا ومحسوبًا.

دخل الشقة.

الضوء اشتعل تلقائيًا. النظام رحّب به بصوت ناعم: «مرحبًا بعودتك. درجة الحرارة معدّلة. هل ترغب في تشغيل برنامج الاسترخاء المسائي؟»

لم يجب.

وقف في وسط الغرفة الوحيدة، ونظر إلى الجدران الرمادية اللامعة. ثم اقترب من النافذة الوهمية التي تعرض صورة ثابتة للمدينة من الأعلى. ضغط على الزر ليغيّر المشهد. ظهرت غابة رقمية، ثم شاطئ اصطناعي، ثم سماء مليئة بالنجوم المبرمجة.

أغلق الشاشة.

جلس على الحافة الباردة للسرير، ووضع رأسه بين يديه.

كل شيء من حوله كان مصنوعًا.

كل شيء مكرر.

كل شيء يعمل بكفاءة مرعبة.

وفي مكان ما داخل صدره، كان الفراغ الصغير الذي شعر به بالأمس يتسع ببطء، كأنه يبحث عن اسم.

الفصل الرابع

محاولات فاشلة

في الأيام التالية بدأ يبحث.

لم يعد ينتظر أن يأتيه الجواب من الطبيب أو من النظام. قرر أن يجرّب بنفسه كل ما يُقال إنه «قريب من الطبيعة» داخل المدينة.

أول ما ذهب إليه كانت الحديقة العمودية في الطبقة الخامسة والعشرين.

كانت مشهورة. الإعلانات تكرر يوميًا أنها «أكبر مساحة خضراء صناعية في المدينة»، وأنها صُممت بدقة علمية لتعيد إحياء الإحساس القديم بالغابات. دفع الرسوم الباهظة، ودخل عبر بوابة زجاجية سميكة.

الهواء داخلها كان مختلفًا قليلًا… أكثر رطوبة، ومخلوطًا برائحة تشبه التراب المبلل. الأشجار طويلة ومستقيمة، أوراقها خضراء لامعة بشكل مبالغ فيه. العشب تحت قدميه ناعم ومرن. في الخلفية صوت طيور مسجّل يتكرر كل سبع دقائق بنفس الترتيب.

سار بين الممرات المحددة. الناس من حوله يلتقطون صورًا، يبتسمون للكاميرات، ويقولون جملًا محفوظة عن «الهدوء» و«الجمال». هو لم يبتسم. لمس ورقة شجرة. كانت باردة وملساء تمامًا، بلا عروق حقيقية، وبلا أي أثر للحياة. عندما اقترب من زهرة حمراء كبيرة ومنعته لوحة إلكترونية من لمسها، شعر فجأة بالغضب.

خرج بعد أقل من ساعة.

التجربة الثانية كانت في السوق السوداء بالطبقة الثامنة.

هناك، في ممرات ضيقة غير مسجلة رسميًا، يبيعون ما يسمونه «روائح طبيعية أصلية». اشترى قارورة صغيرة بسعر مرتفع. عاد إلى شقته، أغلق الباب، وفتح القارورة بحذر.

الرائحة اندفعت قوية: تراب بعد مطر، أوراق رطبة، شيء يشبه اللحاء. للحظة قصيرة جدًا شعر صدره ينفتح. أغمض عينيه وحاول أن يتخيل غابة حقيقية.

ثم لاحظ التفاصيل.

الرائحة كانت مثالية أكثر من اللازم. لا تغير فيها، لا طبقات، لا أثر للوقت. وبعد دقائق قليلة بدأت تفقد قوتها وتتحول إلى رائحة كيميائية باهتة. قرأ الملصق الصغير على القارورة: «مركب عطري مستخلص من بيانات محفوظة — الجيل الرابع».

أغلق القارورة ورماها في سلة المهملات.

التجربة الثالثة كانت أسهل وأرخص: نظارات الواقع الافتراضي التي تُباع في كل مركز تجاري.

اشترى البرنامج الأعلى تقييمًا: «غابات ما قبل الانقراض — تجربة كاملة الحواس». ارتدى النظارات، واستلقى على السرير.

العالم تغيّر فورًا.

أشجار عملاقة تحيط به، ضوء شمس يتسلل من بين الأوراق، صوت نهر بعيد، ورائحة تراب رطب تدخل أنفه عبر الفتحات المخصصة. سار داخل المشهد. لمس لحاء شجرة، فشعر بخشونة مبرمجة بدقة. رفع رأسه فرأى طائرًا يطير.

لبضع دقائق كاد يصدق.

ثم لاحظ التكرار.

الورقة التي سقطت أمامه سقطت مرة أخرى بنفس الزاوية بعد ثلاث دقائق. صوت الريح كان يعيد نفسه كل دورة. وعندما حاول الخروج عن المسار المحدد، ظهرت رسالة شفافة في الهواء: «هذه المنطقة غير متاحة في النسخة الحالية».

خلع النظارات بعنف.

جلس في الظلام، يتنفس الهواء الصناعي البارد، ويشعر أن الفراغ داخل صدره قد اتسع أكثر.

كل شيء كان مزيفًا.

كل محاولة كانت تعيده إلى النقطة نفسها: الجدران الرمادية، الضوء الأبيض، والمدينة التي لا تنتهي.

في تلك الليلة لم ينم.

وقف أمام النافذة الوهمية، وأخذ يقلب المشاهد واحدًا تلو الآخر: غابات، شواطئ، جبال، سماء مرصعة بالنجوم. كلها جميلة. كلها فارغة.

همس لنفسه، بصوت لم يعد يحاول إخفاءه:

«أين أجد شيئًا لم يصنعه أحد؟»

ولم يجب أحد.

فقط النظام في الشقة همس بعد دقيقة بلطف:

«درجة حرارة الغرفة منخفضة قليلًا. هل ترغب في تعديلها؟»

أغلق عينيه،

وشعر للمرة الأولى أن المدينة كلها تبتسم له ابتسامة باردة...

وتعرف أنه بدأ يتعب.

الفصل الخامس

الذكريات المتسربة

بدأت تأتيه في الليل.

في البداية كانت مجرد ومضات قصيرة، كأنها أخطاء في النظام البصري. يرى للحظة لونًا أخضر لم يكن موجودًا في غرفته، أو يسمع صوتًا يشبه حفيف أوراق قبل أن يعود الصمت الإلكتروني المعتاد. كان ينسبها في البداية إلى الإرهاق، أو إلى بقايا برامج الواقع الافتراضي التي جربها.

ثم صارت أوضح.

في إحدى الليالي استيقظ فجأة وهو يشم رائحة تراب مبلل. ليس الرائحة الكيميائية التي اشتراها من السوق السوداء، بل شيئًا أعمق وأكثر تعقيدًا. كان هناك أثر للمطر، وأثر للجذور، وأثر للوقت. فتح عينيه في الظلام، والرائحة ما زالت عالقة في أنفه لثوانٍ قبل أن تتلاشى.

في ليلة أخرى رأى نفسه واقفًا تحت شجرة كبيرة. اللحاء خشن تحت أصابعه، والأوراق تتحرك فوق رأسه بحركة غير منتظمة. كان هناك ضوء شمس حقيقي يتسلل بين الأغصان، ليس الضوء الأبيض المبرمج الذي يعرفه. وعندما رفع رأسه، رأى قطرات ماء تسقط من ورقة عالية وتلامس خده.

استيقظ والخد ما زال يحمل إحساسًا باردًا خفيفًا.

بدأ يسجل هذه اللحظات في دفتر صغير مخفي، بعيدًا عن شاشات النظام. كان يكتب بسرعة قبل أن تتلاشى التفاصيل:

«شجرة... لحاء خشن... ضوء غير منتظم... رائحة بعد المطر.»

«صوت ماء يجري... ليس مسجّلًا... يتغير.»

«طائر يغني... اللحن لا يتكرر.»

كلما كتب أكثر، ازداد تعلقه بهذه الصور. صارت جزءًا من يومه. أثناء العمل كان يجد نفسه يحدق في الشاشة الفارغة ويتذكر شكل الورقة التي رآها في الحلم. في المصعد كان يغلق عينيه ليحاول إعادة بناء صوت الريح.

لكن الشك جاء معه.

هل هذه ذكريات حقيقية؟

أم أنها بقايا بيانات قديمة تسربت إلى عقله من مكان ما؟

أم أنها مجرد خلل نفسي بدأ يتفاقم بعد رفضه للعلاج؟

تذكر ما قاله الطبيب: «اضطراب حنين غير تكيفي». ربما كان النظام يغذي هذه الصور عمدًا في عقول بعض الأشخاص كجزء من تجربة، أو كآلية تفريغ محكومة. ربما كانت ذكريات مزروعة منذ الطفولة لجعل الناس أكثر قابلية للسيطرة... ثم أُغلقت، والآن تتسرب من جديد.

في أحد الأيام توقف أمام لوحة الإعلان القديمة التي تعرض الغابة الرقمية. حدق فيها طويلًا. الأشجار هناك كانت أجمل وأكثر كثافة من التي يراها في ومضاته. لكنها كانت ميتة. لا حركة عشوائية، لا عيوب، لا حياة.

همس لنفسه:

«التي أراها في الليل... فيها عيوب. فيها نقص. فيها شيء لا يمكن برمجته.»

شعر للحظة بشيء يشبه الأمل.

ثم جاء الخوف.

إذا كانت هذه الذكريات حقيقية... فأين ذهبت تلك الأماكن؟

وإذا كانت مزيفة... فلماذا تؤلمه بهذه القوة؟

في تلك الليلة انتظر الومضة التالية بفارغ الصبر.

جلس في الظلام، عيناؤه مفتوحتان، يتنفس ببطء، كأنه يحاول أن يدعو الصورة للحضور. مرت ساعة. ثم ساعتان. لم يأتِ شيء.

عندما أوشك على الاستسلام، جاءت فجأة أقوى من كل مرة سابقة.

كان يقف على ضفة نهر. الماء يجري أمامه بلون بني فاتح، يحمل أوراقًا صغيرة وأغصانًا مكسورة. السماء فوقه رمادية، والمطر خفيف يتساقط على وجهه وكتفيه. الهواء بارد ورطب ويحمل رائحة الطحالب والطين.

مدّ يده إلى الماء.

للحظة أحس بالبرودة الحقيقية تلامس أصابعه.

ثم اختفى كل شيء.

استيقظ وهو يجلس على حافة السرير، يده ما زالت ممدودة في الهواء، والقلب يدق بعنف.

نظر إلى أصابعه في الضوء الخافت.

كانت جافة.

لكن الإحساس بالماء البارد بقي عالقًا فيها لفترة طويلة بعد ذلك...
كأنه وعد صغير
أو تهديد.

الفصل السادس
الجلسة الثانية

حجز موعدًا جديدًا بعد أسبوعين بالضبط.

هذه المرة لم يكن مرتبكًا كما في الزيارة الأولى. دخل المكتب بخطوات ثابتة، وجلس دون أن ينتظر الإشارة. الطبيب النفسي رفع عينيه من الشاشة، وابتسم ابتسامة مهنية قصيرة.

«عدت. هذا جيد. كيف كانت الأيام الماضية؟»

الشاب نظر إليه مباشرة.

«أرى أشياء. أشياء لا تنتمي إلى هذه المدينة.»

الطبيب مال قليلًا إلى الأمام، وبدأ يدون.

«صفها لي.»

«أشجار. لحاءها خشن. ماء يجري. مطر حقيقي يسقط على الوجه. روائح لا يمكن تركيبها في مختبر. أصوات لا تتكرر بنفس الترتيب.»

صمت لحظة ثم أضاف بصوت أهدأ:

«وإحساس... بأنني كنت هناك مرة. أو أن جزءًا مني ما زال هناك.»

الطبيب توقف عن الكتابة. نظرته تغيّرت قليلًا، صارت أكثر حذرًا.

«هذه الأعراض تتوافق مع تصاعد اضطراب الحنين غير التكيفي. في بعض الحالات تتطور إلى هلوسات حسية مفصلة. الأمر قابل للعلاج.»

«علاج؟»

«نعم. لدينا مركّب كيميائي جديد يثبّط مراكز الاستدعاء العاطفي المرتبطة ببيانات ما قبل الانقراض. النتائج ممتازة. معظم المرضى يستعيدون توازنهم خلال أسابيع.»

الشاب هز رأسه ببطء.

«تقصد أن تجعلني أنس.»

«نقصد أن نساعدك على التكيف مع الواقع الحالي. الذكريات التي تصفها — إن كانت ذكريات أصلًا — لم تعد ذات فائدة عملية. العالم الذي تتحدث عنه لم يعد موجودًا.»

«كيف تعرف أنه لم يعد موجودًا؟»

الطبيب صمت ثانية أطول من المعتاد. ثم قال بهدوء مدروس:

«لأن كل شبر من الكوكب تحت الغطاء البلوري أو خارجه خاضع للمراقبة المستمرة منذ أكثر من ثمانين عامًا. لا توجد مساحات طبيعية متبقية. ما تراه في نومك إما بقايا بيانات قديمة تسربت إلى اللاوعي، أو تصنيع داخلي يقوم به دماغك تحت ضغط الاغتراب.»

الشاب شعر بغضب بارد يتصاعد في صدره. لم يرفع صوته. فقط تكلم بوضوح أكبر:

«وإذا كنت مخطئًا؟ إذا كان هناك مكان ما لم تصل إليه المراقبة؟»

الطبيب أغلق الملف الإلكتروني أمامه بهدوء.

«هذا التفكير بالذات هو ما يجعل حالتك تحتاج إلى تدخل أسرع. سأكتب لك وصفة اليوم. الدواء متوفر في الصيدليات المركزية. جرعة واحدة يوميًا قبل النوم.»

«لن آخذه.»

الكلمة خرجت هادئة وقاطعة.

الطبيب رفع حاجبه قليلًا.

«أرفض العلاج؟»

«أرفض أن تمحوا مني الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر أنني ما زلت حيًا.»

ساد صمت ثقيل في الغرفة. الضوء الأبيض على المكتب بدا فجأة أقسى. الطبيب نظر إلى الشاب لفترة طويلة، ثم ضغط على زر صغير بجانب الشاشة.

«كما تشاء. لكنني ملزم بتسجيل رفضك للعلاج. في مثل هذه الحالات... يُرفع تقرير تلقائي إلى قسم الاستقرار النفسي.»

الشاب شعر بشيء ينقبض في معدته.

«ماذا يعني ذلك؟»

«يعني أن حالتك ستُراقب عن كثب خلال الفترة القادمة. فقط كإجراء وقائي. لا شيء يدعو للقلق... ما دمت لا تشكل خطرًا على نفسك أو على النظام.»

خرج من المكتب وهو يشعر أن عينين غير مرئيتين قد بدأتا تتبعانه.

في الممر الطويل المضيء، لاحظ للمرة الأولى الكاميرات الصغيرة المدمجة في الزوايا. كانت دائمًا موجودة، لكنه لم يكن يراها بهذا الوضوح من قبل.

في المصعد، وقف رجلان ببدلات رمادية داكنة في الجهة المقابلة. لم ينظرا إليه. لكن حضورهما كان ثقيلًا أكثر من اللازم.

عندما وصل إلى شقته، وجد رسالة قصيرة على الشاشة الرئيسية:

«تم تحديث ملفك الصحي. يُرجى الالتزام بالتوصيات الطبية المتاحة.»

أغلق الرسالة دون أن يقرأ المزيد.

جلس على الأرض، ظهره إلى الجدار، وأغلق عينيه.

الذكريات كانت ما تزال هناك... الأشجار، المطر، صوت الماء.

لكنها الآن لم تعد مجرد ومضات.

صارت دليل إدانة.

وصارت السبب الذي قد يجعل النظام يقرر أن يمحوه بهدوء...

قبل أن يجد ما يبحث عنه.

الفصل السابع

القرار

لم ينم تلك الليلة.

جلس على حافة السرير ساعات طويلة، والضوء الخافت في الغرفة لا يتغير. الرسالة التي وصلته من النظام ما زالت عالقة في ذاكرته مثل طعم معدني: «تم تحديث ملفك الصحي». الكلمات بسيطة، لكنها كانت كافية لتجعله يفهم أن الباب الذي كان مفتوحًا قليلًا قد بدأ يُغلق.

قام وتمشى داخل الغرفة الضيقة. خمس خطوات في اتجاه، خمس في الاتجاه المعاكس. الجدران الرمادية تراقبه بصمت. النظام في الشقة لم يتكلم هذه المرة. كأنه ينتظر.

توقف أمام النافذة الوهمية. شغّل المشاهد واحدًا تلو الآخر: الغابة الرقمية، الشاطئ الاصطناعي، السماء المليئة بالنجوم المبرمجة. كلها بدت الآن أكثر زيفًا من أي وقت مضى. أغلقها جميعًا وترك الشاشة سوداء.

جلس على الأرض، ظهره إلى الحائط، وأغلق عينيه.

جاءت الومضة من تلقاء نفسها هذه المرة.

كان يقف مرة أخرى على ضفة النهر. الماء يجري، والمطر خفيف، والهواء بارد ورطب. مدّ يده كما فعل في المرة السابقة، لكن الإحساس بالبرودة كان أقوى. سمع صوتًا بعيدًا... ربما صوت طائر، أو ربما صوت ريح حقيقية تمر بين أشجار لم تعد موجودة.

عندما فتح عينيه كان الفجر الإلكتروني قد بدأ يتسلل إلى الغرفة.

أدرك فجأة شيئًا بسيطًا وحاسمًا:

لم يعد قادرًا على الاستمرار داخل هذا العالم كما هو.

إما أن يجد ما يبحث عنه،

أو يختفي هو نفسه بهدوء كما يختفي أي خلل غير مرغوب فيه.

نهض.

ارتمى ثيابًا عملية داكنة اللون، ووضع في جيب معطفه الدفتر الصغير الذي كان يسجل فيه ومضاته. لم يأخذ شيئًا آخر. لا طعامًا إضافيًا، لا جهازًا، لا دواءً.

خرج من الشقة دون أن يغلق الباب خلفه تمامًا.

الممر كان فارغًا في هذه الساعة المبكرة. سار بخطى هادئة نحو محطة المصاعد الرئيسية. الشاشات على الجدران تعرض نشرة الصباح المعتادة: تحديثات الطقس الصناعي، أسعار الطاقة، وإعلان جديد عن «تجربة غابة مطورة — الآن برائحة مطر حقيقية 98%».

ابتسم ابتسامة صغيرة مرة، وتجاوزها.

وقف أمام لوحة المصاعد.

الخيارات كثيرة: الطبقات العليا، المراكز التجارية، مناطق العمل، المستويات الترفيهية. وفي الأسفل، بين الخيارات الأقل استخدامًا، كان هناك زر واحد مكتوب عليه بخط صغير:

«الأعماق — المستويات التقنية والخدمية»

مدّ يده.

للحظة تردد. تذكر وجه الطبيب، والرجلين في المصعد، والرسالة على الشاشة. ثم تذكر برودة الماء على أصابعه وصوت المطر الذي لا يتكرر.

ضغط الزر.

الباب انفتح بهدوء. صوت مهذب جاء من مكان مجهول داخل الكابينة:

«إلى أين؟»

أجاب دون أن يرفع صوته، لكن بوضوح كامل:

«إلى الأسفل.

إلى أقصى عمق.»

الباب أُغلق.

والمصعد بدأ يهبط بسرعة هائلة نحو باطن المدينة...

نحو الطبقات التي لم يكن معظم السكان يعرفون حتى أنها موجودة.

وهو واقف في الزاوية، عيناه مفتوحتان في الضوء الخافت،

كان يشعر أن الفراغ داخل صدره قد توقف عن الاتساع للمرة الأولى منذ أسابيع.

كأنه أخيرًا يتحرك في الاتجاه الصحيح...

حتى لو كان هذا الاتجاه يؤدي إلى لا شيء.

الفصل الثامن

الهبوط إلى الأعماق

المصعد كان يهبط بسرعة لا ترحم.

الضوء داخل الكابينة خافت ومستقر، والجدران المعدنية تلمع ببرودة هادئة. الصوت المهذب الذي سأله في البداية لم يعد يتكلم. فقط مؤشر صغير على اللوحة كان يعرض العمق بالمتر، والأرقام تتناقص بسرعة جنونية.

ألف متر.

خمسة آلاف.

عشرة آلاف.

شعر بضغط خفيف في أذنيه مع ازدياد العمق، رغم أن النظام كان يعدّل الضغط تلقائيًا. نظر إلى الجدار الشفاف الصغير في الجهة المقابلة. لم يكن يرى شيئًا سوى طبقات معدنية تتوالى، وأنابيب سميكة، وأضواء حمراء وخضراء تومض على مسافات منتظمة.

بعد وقت بدا له طويلًا توقف المصعد فجأة.

الباب انفتح ببطء.

خرج.

المكان الذي وجد نفسه فيه لم يكن يشبه أي طبقة عرفها من قبل. ممرات واسعة مبطنة بالصلب اللامع تمتد بلا نهاية في كل الاتجاهات. الهواء هنا كان أثقل، مشبعًا برائحة الزيت الساخن والكهرباء. على جانبي الممرات صفوف لا تُحصى من الأجهزة الإلكترونية الكبيرة، كلها تعمل في صمت شبه مطبق، تضيء وتنطفئ بمؤشرات صغيرة كأنها تتنفس.

كان هناك إنسان آلي في انتظاره.

جسمه معدني باهت، عيناه عدستان زجاجيتان ثابتتان، وصوته جاء هادئًا ومؤدبًا:

«ماذا تريد يا سيدي؟»

أجاب الشاب بصوت كان يحاول أن يخفي فيه شيئًا من اللهفة:

«أريد أن أرى أعماق المدينة.»

الروبوت مال برأسه قليلاً في إشارة فهم، ثم استدار ومشى. تبعه الشاب في الممرات الطويلة المتألقة. كلما تقدم أكثر ازداد إحساسه بالضيق. كل شيء هنا كان صناعيًا إلى أقصى درجة. لا أثر لتراب، لا حجر طبيعي، لا رطوبة حقيقية. حتى الجدران كانت مصقولة بشكل يزيل أي إحساس بالزمن.

توقف عند نقطة بدا أن الممرات تتفرع منها إلى ما لا نهاية.

سأل فجأة:

«على أي عمق هذا المكان؟»

أجاب الروبوت دون أن يلتفت:

«خمسون كيلومترًا يا سيدي.»

كرر الرقم لنفسه بصوت خافت. ثم سأل والسؤال يكاد يحرق حلقه:

«هل هذا هو أقصى عمق؟»

«أجل. لا شيء بعد هذا.»

نظر حوله مرة أخيرة. كان يتمنى أن يرى باطن الأرض الحقيقي... صخوره المنصهرة، مادته الخام في حالتها الأولى. لكن كل ما رآه كان امتدادًا للمدينة نفسها: صلب، بلاستيك، أسلاك، وضوء اصطناعي لا ينتهي.

أحس بالهزيمة تتسلل إلى أطرافه.

«أظن أنني سأعود»، قال بصوت منخفض.

أجاب الروبوت في طاعة كاملة:

«حسنًا يا سيدي.»

عاد أدراجه نحو المصعد. الباب انفتح من جديد. قبل أن يدخل، التفت نظرة أخيرة إلى الممرات اللانهائية. ثم دخل وأغلق الباب خلفه.

قال للصوت المهذب الذي عاد يظهر:

«إلى الأعلى. ثم إلى أقرب منصة مركبات هوائية.»

المصعد بدأ يصعد بسرعة هائلة.

وهو واقف في الزاوية، ظهره إلى الجدار، كان يدرك أن الأعماق لم تعطه ما أراد.
كل شيء تحت المدينة كان المدينة نفسها... فقط أعمق وأكثر برودة.

لكنه لم يعد يائسًا تمامًا.

كان هناك خيار آخر ما زال مفتوحًا:
الخروج.
الطيران فوق الغطاء البلوري، والبحث عن أي مساحة لم تُذكر في الخرائط الرسمية.

عندما وصل إلى منصة المركبات الهوائية، كانت السماء الصناعية فوقه رمادية وهادئة.
استأجر مركبة صغيرة بسيطة، جلس خلف أدوات التحكم،
ونظر إلى الأفق الذي يبدو بلا نهاية.

همس لنفسه وهو يشغّل المحركات:

«إذا لم يكن في الأسفل...
فربما يكون في مكان أبعد.»

والمركبة ارتفعت ببطء فوق المدينة الهائلة...
رمادية، لامعة،
وخالية من أي قلب.

الفصل التاسع
البقعة الخضراء

طارت المركبة الهوائية ساعات طويلة فوق المدينة.

تحتَه كانت تمتد الطبقات الرمادية بلا نهاية: أبراج، جسور، أنابيب شفافة، وأضواء لا تنطفئ. الغطاء البلوري فوق كل شيء يعكس ضوءًا باهتًا يجعل الأفق يبدو كجدار لامع مغلق. لا سحب حقيقية، لا تغيّر في الضوء، فقط رمادي متدرج يمتد إلى ما لا نهاية.

كاد أن يستسلم ويعود.

الوقود كان لا يزال كافيًا، لكن الإحساس بالعبث بدأ يتسلل إليه من جديد. كل اتجاه يطير فيه كان يعيد الصورة نفسها. المدينة لا تنتهي. والحضارة التي صنعها الإنسان غطت كل شيء.

ثم رآها.

في البداية ظنها خطأً في الرؤية أو انعكاسًا على الزجاج. مساحة صغيرة بعيدة، لونها مختلف تمامًا عن الرمادي السائد. أخضر. أخضر حقيقي يميل إلى الداكن في بعض المواضع، ومشرق في مواضع أخرى.

أشار بيده إلى الشاشة كأنما يتحقق.

المركبة اقتربت تلقائيًا عندما غيّر الاتجاه. كلما اقترب ازداد اللون وضوحًا. لم تكن حديقة عمودية مألوفة. لم تكن محاكاة رقمية. كانت بقعة ممتدة بين التلال الصغيرة، تحتوي على أشجار حقيقية المظهر، وعشب، وظلال تتحرك مع ضوء غير منتظم.

يداه ارتعدتا على أدوات التحكم.

جفّ حلقه.

لكنه تمالك نفسه، وخفض المركبة بسرعة حذرة حتى هبطت على جزء ممهد من الأرض عند حافة المساحة الخضراء.

بقي داخل المركبة دقائق طويلة.

الانفعالات كانت تتصارع داخله: الخوف من أن تكون مجرد خدعة أخرى، والفرح الذي يكاد يخنقه، والشك القديم الذي تعلّم أن يحمله معه أينما ذهب. أخيرًا فتح الباب ونزل.

الهواء الذي دخل إلى رئتيه كان مختلفًا.

ليس الهواء الصناعي المنقّى تمامًا، ولا الرائحة الكيميائية للحدائق العمودية. كان هناك رطوبة خفيفة، وأثر لشيء يشبه التراب، ورائحة خضراء ناعمة لا يستطيع تسميتها لكنه يعرفها من ومضاته الليلية.

سار ببطء بين الأشجار.

الأوراق فوق رأسه تتحرك حركة خفيفة غير مبرمجة. العشب تحت قدميه ينضغط ثم يعود بمرونة طبيعية. زهور صغيرة ملونة تنتشر هنا وهناك دون ترتيب هندسي. التلال الخضراء تمتد أمامه بهدوء، وكأن المدينة الرمادية الهائلة لم تكن موجودة على بعد كيلومترات قليلة فقط.

توقف في منتصف الطريق.

استلقى على العشب.

أغمض عينيه وأخذ يتنفس بعمق. الرائحة المنعشة تملأ صدره، مختلفة تمامًا عن أي شيء عرفه في حياته داخل المدينة. للمرة الأولى منذ سنوات طويلة شعر بجسده يسترخي دون أن يطلب من النظام تعديل درجة الحرارة أو تشغيل برنامج استرخاء.

ابتسم.

ابتسامة صغيرة حقيقية خرجت من مكان عميق لم يكن يعرف أنه ما زال موجودًا.

همس لنفسه، والصوت يكاد يضيع بين حفيف الأوراق:

«وجدتها…

أخيرًا وجدتها.»

وفوقه كانت السماء — حتى لو كانت جزءًا من محاكاة أوسع — تبدو أوسع وأكثر رحمة من كل الأسقف الرمادية التي نام تحتها طوال عمره.

نام هناك، محاطًا باللون الأخضر،

دون أن يعرف بعد

أن الجنة التي وجدها

كانت تنتظره منذ زمن طويل...

لسبب آخر تمامًا.

الفصل العاشر

العجوز والكوخ

استيقظ بعد نوم طويل وعميق لم يعهده منذ سنوات.

فتح عينيه على الضوء المتسلل بين الأوراق. السماء فوقه بدت أصفى مما كانت في الليلة السابقة، والعشب ما زال يحمل نداوة خفيفة. للحظة قصيرة نسي أين هو، ثم تذكر فجأة وابتسم من جديد.

قام ببطء، وتمشى بين المروج الخضراء.

سار دون هدف واضح، يلمس اللحاء، يشم الزهور من بعيد، ويسمع أصواتًا صغيرة لا يعرف مصدرها. حتى وجد نفسه أمام بقعة منحصرة قليلاً، وفي وسطها كوخ صغير مصنوع من الخشب.

توقف.

المبنى كان يختلف تمامًا عن كل ما اعتاده في المدينة. لا صلب، لا بلاستيك، لا ألياف صناعية لامعة. جدرانه خشبية داكنة، وسقفه مائل ببساطة، وبابه من ألواح غير متساوية. بدا قديمًا ومتعباً... وحقيقيًا.

اقترب ودق على الباب عدة مرات.

أجابه صوت خافت متعب من الداخل:

«ادخل.»

فتح الباب بحذر ودخل.

الكوخ كان مكونًا من غرفة واحدة. كل أثاثه من الخشب أيضًا: طاولة صغيرة، كرسي، ورفوف بسيطة عليها أدوات قديمة. في ركن من الغرفة جلس رجل عجوز، طويل القامة، ينتعل حذاءً أسود باليًا. وجهه مليء بالتجاعيد العميقة، وعيناه الصغيرتان تنظران إليه بفضول هادئ.

قال العجوز بصوت هامس:

«هل أتيت لرؤيتي؟»

أجاب الشاب، وما زال غير قادر على تصديق ما يراه:

«أجل... لم أتصور أن مثل هذا الجمال موجود في عالمنا.»

تنهّد الرجل العجوز، وقال بصوت مفعم بالحزن:

«لقد نسي الناس معنى الجمال... منذ زمن طويل.»

جلس الشاب على الحافة الخشبية المقابلة، مبهورًا. كان يريد أن يسمع كل ما يقوله هذا الرجل عن الماضي، عن اللون الأخضر، عن الأشياء التي اختفت.

العجوز نظر إليه طويلاً ثم قال:

«إنك أول زائر لحديقتي... منذ سنوات عديدة.»

تساءل الشاب بدهشة حقيقية:

«هل تعيش هنا... وحيدًا؟»

أومأ العجوز برأسه ببطء.

«وحيدًا... نعم. المدينة لم تعد تحتاجني، وأنا لم أعد أحتاجها. هنا أستطيع أن أتذكر ما كان، حتى لو كان التذكر مؤلمًا أحيانًا.»

صمت لحظة، ثم أضاف وهو ينظر من النافذة الصغيرة إلى الأشجار في الخارج:

«الناس هناك داخل الغطاء البلوري نسوا كيف يكون الهواء مختلفًا من ساعة إلى أخرى. نسوا أن الظل يتحرك مع الشمس، وأن الأوراق تسقط دون أن يطلب منها أحد. نسوا... أن الجمال يمكن أن يكون ناقصًا وغير مثالي... ومع ذلك يبقى جميلًا.»

الشاب شعر بشيء دافئ ينتشر في صدره.

للمرة الأولى منذ زمن طويل كان يجلس أمام إنسان يتكلم عن الأشياء التي تؤلمه هو نفسه، دون أن يسميها اضطرابًا أو يقترح عليه دواءً.

قال بصوت منخفض:

«أنا أبحث عن شيء حقيقي... شيء لم يصنعه الإنسان.»

العجوز ابتسم ابتسامة صغيرة حزينة.

«كثيرون جاءوا قبلك بنفس الجملة. ثم عادوا. المدينة قوية، والعادة أقوى. لكنك... تبدو مختلفًا قليلًا.»

نظر إليه بعينيه المتعبتين وأضاف:

«ابقَ اليوم. سر بين الأشجار كما تشاء. وتنفس. غدًا... إن أردت... يمكننا أن نتحدث أكثر.»

الشاب أومأ برأسه.

خرج من الكوخ بخطوات خفيفة، وعاد إلى المروج الخضراء.

هذه المرة لم يكن يمشي كزائر مذهول فقط.
كان يمشي كمن وجد أخيرًا مكانًا يمكن أن يضع فيه حمولته الثقيلة...
ولو لساعات قليلة.

وفوقه كانت الأوراق تتحرك بحركة غير منتظمة،
والضوء يتسلل بينها كأنه ضوء حقيقي،
والهواء يدخل إلى رئتيه بشيء يشبه الرحمة.

الفصل الحادي عشر
الزهرة التي ذبلت

قرب نهاية اليوم، وبينما كان يسير بجانب العجوز خارج الكوخ، رأى شجيرة صغيرة عند الحافة.

كانت تحمل عدة زهور ذات لون وردي باهت، تبدو طرية وحية أكثر من كل ما رآه في الحدائق العمودية. توقف أمامها، ومدّ يده بفرح طفولي تقريبًا. أراد أن يقطف واحدة فقط... ليحتفظ بها تذكارًا. ليتأكد لاحقًا، عندما يعود إلى الجدران الرمادية، أن ما رآه هنا كان حقيقيًا.

صراخ العجوز جاء حادًا ومفاجئًا:

«كلا... لا تلمس الزهور!»

يد الشاب توقفت في منتصف المسافة.

انتابه غضب مفاجئ. لقد سئم الأوامر طوال حياته داخل المدينة: الأوامر الإلكترونية، تعليمات النظام، توصيات الطبيب، القواعد غير المكتوبة التي تمنع أي خروج عن المسار. وهنا... في هذه الجنة التي ظنها حرة... يأتيه أمر جديد؟

فكر بسرعة: لن يخضع هذه المرة. هو في المكان الوحيد الذي يبدو أنه لم تصنعه الآلات بالكامل. أكمل حركة يده، وقطف الزهرة بعنف خفيف.

في اللحظة التي أمسكها بين أصابعه... ذبلت.

تحولت أمام عينيه إلى خيوط رفيعة شاحبة تشبه خيوط العنكبوت الجافة. اللون الوردي اختفى، والبتلات انكمشت وتفتت كأنها لم تكن موجودة إلا كوهم.

نظر إلى يده في ذهول كامل.

رفع عينيه اليائستين إلى العجوز، وهمس بحزن بالغ:

«حتى الزهور... صناعية.»

ثم انفجر.

اندفع نحو الرجل العجوز وأمسك بعنقه بكلتا يديه، صوته يخرج مبحوحًا من الغضب والانهيار معًا:

«أيها الكاذب الحقير... لقد كدت أصدقك! كل ما أردته هو الحقيقة... لماذا كذبت؟ لماذا؟»

تحشرج صوت العجوز تحت قبضته. حاول أن يتكلم، فخرجت الكلمات بصعوبة:

«حاولت... أن أمنعك من قطفها... حتى لا تعرف.»

الشاب صرخ في ذروة انفعاله، وهو يهز الرجل العجوز بعنف:

«لا تريدني أن أعرف الحقيقة؟»

العجوز أجاب بصوت ضعيف مكسور، بينما كانت يداه تحاولان إبعاد القبضة عن رقبته:

«أجل... فلست في حاجة إلى المدينة... كما أنها لا تريدني. إن الذي يرعى هذه الحديقة... إنسان آلي.»

الشاب تجمد.

أصابعه ارتخت فجأة حول عنق العجوز. تراجع خطوة إلى الوراء، وعيناه توسعان من الدهشة والألم.

«ولكنني... لم أشاهده!»

أطرق الرجل العجوز قليلًا، ومسح رقبته بيده المرتجفة. ثم قال همسًا، كأنه يعتذر عن شيء أكبر من الكذبة الصغيرة:

«إنه يأتي ليلًا.»

ساد صمت ثقيل بين الاثنين.

الريح الخفيفة حركت الأوراق فوق رؤوسهما، لكن الشاب لم يعد يسمعها. كان ينظر إلى الزهرة الميتة في كفه، ثم إلى الأشجار من حوله، ثم إلى العشب الذي كان يستلقي عليه قبل ساعات وهو يعتقد أنه وجد الجنة.

كل شيء هنا... مصنوع.

مثل المدينة.

مثل الهواء.

مثل الذكريات التي كانت تأتيه في الليل ربما.

رفع رأسه ببطء إلى العجوز، وصوته خرج هذه المرة هادئًا ومكسورًا:

«لماذا؟ ... لماذا تصنعون حتى هذا؟»

العجوز لم يجب فورًا. جلس على الأرض متعبًا، ظهره إلى جدار الكوخ، ونظر إلى الأفق الرمادي البعيد حيث تبدأ حدود المدينة من جديد.

ثم قال بصوت يشبه اعترافًا قديمًا:

«لأن الناس... حتى عندما يهربون... ما زالوا بحاجة إلى أن يصدقوا أن هناك مكانًا يمكن الهروب إليه.

والنظام... يعرف كيف يبيع لهم حتى الحلم.»

الشاب نظر إلى يده مرة أخيرة.

الخيوط الشاحبة التي كانت زهرة تناثرت مع النسيم الخفيف واختفت.

ثم رفع عينيه إلى السماء التي بدت فجأة أضيق مما كانت في الصباح...

وأكثر قسوة.

الفصل الثاني عشر

الحارس الليلي

حلّ الليل ببطء فوق الحديقة.

الضوء الاصطناعي البعيد القادم من المدينة كان ينعكس على الغطاء البلوري فيجعل السماء تبدو رمادية داكنة بدلاً من سوداء. الشاب جلس على عتبة الكوخ الخشبي، والعجوز إلى جانبه، كلاهما صامتان بعد العاصفة التي مرّت في العصر.

بعد وقت طويل كسر العجوز الصمت.

«يأتي بعد منتصف الليل عادة. لا يستخدم الأضواء. يتحرك بين الأشجار كأنه جزء منها.»

الشاب لم يلتفت إليه. كان ينظر إلى الظلام الذي يبتلع المروج تدريجيًا.

«لماذا يعتني بها إن كانت كلها مزيفة؟»

العجوز تنهّد.

«لأن الزيف يحتاج إلى صيانة أكثر من الحقيقة أحيانًا. الأوراق الاصطناعية تتراكم عليها الأتربة الصناعية القادمة مع الرياح من اتجاه المدينة. بعض الأزهار تفقد لونها مع الوقت فتُستبدل. العشب في بعض البقع ينضغط من الزيارات النادرة أو من المطر الحمضي الخفيف الذي يتسرب أحيانًا... فيعيد هو تسويته. وهو أيضًا... يراقب.»

«يراقب ماذا؟»

«أي شيء يخرج عن النمط. أي زائر يبقى أكثر من اللازم. أي محاولة لكسر شيء أو أخذ عينة. النظام لا يحب المفاجآت... حتى في الأماكن التي صُممت لتبدو وكأنها خارج النظام.»

الشاب شعر بقشعريرة خفيفة.

«هل يعرف أنني هنا؟»

العجوز هز رأسه ببطء.

«ربما. الروبوتات من هذا النوع لا تنسى الوجوه. ولا تنسى التوقيتات. لكنه لا يتدخل عادة ما دام الزائر لم يُلحق ضررًا كبيرًا ولم يحاول الخروج بشيء مادي.»

صمتا من جديد.

بعد ساعة تقريبًا، عندما كان الظلام قد اكتمل، سمع الشاب صوتًا خافتًا.

ليس صوت خطوات بشرية. كان صوتًا منتظمًا وناعمًا، كحركة معدنية مغطاة بمادة لامتصاص الصوت. رفع رأسه. في الطرف البعيد من الحديقة، بين صفوف الأشجار، ظهرت هيئة طويلة تتحرك ببطء.

الروبوت كان أطول من الإنسان العادي بقليل. جسمه مطلي بلون أخضر داكن يمكّنه من الاندماج مع الظلال. ذراعاه الطويلتان تتحركان بدقة بين الأوراق، تلمسان، تفحصان، وتصلحان ما يحتاج إلى إصلاح. في إحدى يديه أداة صغيرة تضيء بضوء أزرق خافت جدًا كلما اقترب من زهرة أو غصن.

الشاب حبس أنفاسه.

الروبوت توقف فجأة. رأسه دار بزاوية بطيئة نحو الكوخ. العدسات التي تعمل مقام عينيه لمعَت للحظة قصيرة بلون أحمر باهت، ثم انطفأت. بقي ثابتًا ثوانٍ طويلة كأنه يستمع أو يمسح المنطقة بمستشعراته.

ثم واصل عمله كأن شيئًا لم يكن.

العجوز همس دون أن يتحرك:

«رأى وجودنا. لكنه قرر أن نمر هذه الليلة. في المرات السابقة... كان الأمر مختلفًا أحيانًا.»

الشاب راقب الروبوت حتى اختفى بين الأشجار في الجهة المقابلة. الصوت الناعم تلاشى تدريجيًا، وعادت الحديقة إلى صمتها الثقيل.

بعد أن تأكد أن الحارس قد ابتعد، قال الشاب بصوت منخفض:

«هل سبق أن حاول أحدهم تدميره؟ أو الهروب بشيء من هنا؟»

العجوز أطرق.

«حاولوا. قبل سنوات. شاب مثلك تقريبًا. اعتقد أن بإمكانه أخذ تربة أو بذور وزرعها في مكان آخر. الروبوت لم يقتله... لكنه منعه. ثم جاءت وحدة من المدينة في اليوم التالي وأخذت الشاب. لم يعد.»

الشاب شعر بالبرد يتسلل إلى عموده الفقري رغم اعتدال الحرارة.

نظر إلى يده التي حملت الزهرة الميتة في العصر، ثم إلى الظلام الذي ابتلع الحارس الليلي.

همس، أكثر لنفسه من العجوز:

«حتى هنا... نحن تحت المراقبة.»

العجوز وضع يدًا خشنة على كتفه لحظة قصيرة، ثم سحبها.

«دائمًا كنا. الفرق فقط أن بعض الأماكن تجيد إخفاء القيود تحت أوراق خضراء جميلة.»

في الأفق البعيد، كانت أضواء المدينة ما تزال تشتعل بلا انقطاع.

وبينما كان الشاب يحدق فيها، أدرك أن الجنة التي نام في حضنها صباحًا

لم تكن سوى قفص آخر...

أجمل قليلًا،

وأذكى في إخفاء القضبان.

الفصل الثالث عشر

الوداع

في الصباح التالي كان الهواء في الحديقة باردًا قليلاً.

الشاب وقف أمام الكوخ، حقيبته الصغيرة على كتفه، والعجوز يجلس على العتبة الخشبية كما في الليلة السابقة. لم يتحدثا كثيرًا منذ أن اختفى الروبوت في الظلام. الكلمات كانت تبدو فجأة ثقيلة وزائدة.

أخيرًا كسر العجوز الصمت.

«ستغادر إذن.»

لم يكن سؤالاً. كان مجرد تأكيد.

أومأ الشاب برأسه.

«لم يعد هنا ما أبحث عنه.»

العجوز نظر إلى الأشجار المحيطة بهم، ثم إلى الأفق الرمادي حيث تبدأ حدود المدينة من جديد.

«كنت أعرف أنك ستقول ذلك. معظم من جاءوا قبلك قالوا الجملة نفسها... بعد أن اكتشفوا الحقيقة.»

«ومع ذلك بقيت أنت.»

ابتسم العجوز ابتسامة صغيرة باهتة.

«أنا لم أعد أبحث. اكتفيت بأن أتذكر. وأن أحرس هذا الزيف الجميل حتى لا ينهار قبل أوانه. ربما هذا كل ما يستطيع إنسان في عمري أن يفعله.»

الشاب صمت لحظة، ثم قال بصوت أكثر هدوءًا:

«هل تعتقد أن هناك مكانًا حقيقيًا ما زال موجودًا؟ في مكان ما... خارج كل هذا؟»

العجوز رفع عينيه إليه. للمرة الأولى بدا فيهما شيء يشبه الحذر، أو ربما الأمل القديم الذي رفض أن يموت تمامًا.

«لا أعرف. سمعت شائعات عبر السنين. عن مناطق أبعد من الغطاء البلوري، عن جيوب صغيرة نجت بالصدفة أو بالتجاهل. لكنني لم أذهب للتحقق. الخوف... أو التعب... أو الاثنان معًا أوقفاني هنا.»

ثم أضاف بعد صمت قصير:

«أما أنت... فما زال لديك الوقت والغضب الكافي. ربما هذا يكفي.»

الشاب مدّ يده.

العجوز أمسكها بيديه الخشنتين لحظة طويلة، كأنه يمرر شيئًا صامتًا لا تستطيع الكلمات حمله. ثم أفلت ها.

«اذهب. قبل أن يقرر الحارس الليلي أن زياراتك صارت أطول من اللازم.»

التفت الشاب نحو المروج الخضراء مرة أخيرة.

الأشجار ما زالت تتحرك بحركة مقنعة، والعشب يلمع بندى الصباح، والزهور تبدو طرية وحية. لكنه الآن كان يراها على حقيقتها: جمالًا مصنوعًا بعناية ليؤجل اليأس قليلًا... لا لينهيه.

سار نحو المركبة الهوائية دون أن يلتفت خلفه.

عندما وصل إليها وفتح الباب، سمع صوت العجوز يأتي من بعيد، خافتًا لكنه واضح:

«إذا وجدت ما تبحث عنه... أو حتى إذا لم تجده... تذكر أنك لم تستسلم في اليوم الذي اكتشفت فيه الزيف. هذا بحد ذاته... شيء حقيقي.»

الشاب لم يرد.

دخل المركبة، شغّل المحركات، وارتفع ببطء فوق الحديقة.

تحتَه كانت البقعة الخضراء تصغر تدريجيًا حتى صارت مجرد نقطة لون مختلفة في بحر الرمادي اللانهائي. ثم اختفت تمامًا خلف انحناء المدينة.

جلس خلف أدوات التحكم، عيناه على الأفق المفتوح.

الهزيمة كانت ما تزال طازجة في صدره، والغضب أيضًا. لكن تحتها كان هناك شيء آخر أصعب وأصلب: قرار جديد لم يعد قابلاً للتراجع.

همس لنفسه، والصوت يضيع في أزيز المحركات:

«إذا لم يكن هنا...

فسيكون في مكان أبعد.

أو في زمان آخر.

أو تحت طبقات أعمق مما وصل إليه أحد.

لكنني لن أتوقف.»

والمركبة انطلقت نحو المجهول...

تاركة خلفها جنة زائفة

ورجلاً عجوزًا يجلس وحيدًا على عتبة كوخ خشبي،

ينظر إلى الأفق

كأنما ينتظر زائرًا جديدًا

أو نهاية طال أمدها.

الفصل الرابع عشر

العودة تحت المراقبة

هبطت المركبة الهوائية على المنصة المخصصة في الطبقة العشرين مع غروب الشمس الاصطناعي.

المدينة استقبلته كما تركها: أضواء لا تنطفئ، هواء مفلتر، ووجوه تمشي بسرعة دون أن تنظر إلى أحد. لكن شيئًا ما كان مختلفًا هذه المرة. أو ربما هو الذي تغيّر.

عند بوابة الخروج من المنصة توقفت الشاشة أمامه للمرة الأولى منذ سنوات. ظهرت صورة وجهه، ثم سطر أحمر صغير:

«ملف صحي — مستوى مراجعة مرتفع. يُرجى مراجعة أقرب مركز استقرار نفسي خلال 48 ساعة.»

قرأ السطر مرتين. لم يُدهش. منذ رفض العلاج في الجلسة الثانية كان يعرف أن هذا اليوم سيأتي. لكنه شعر بثقل جديد في كتفيه، كأنها يد غير مرئية قد وضعت نفسها هناك بهدوء.

لم يذهب إلى المركز.

عاد إلى شقته في الطبقة السابعة عشرة. الباب فتح بصمته المعتادة، والنظام رحّب به بصوت ناعم كأنه لم يغب يومًا:

«مرحبًا بعودتك. درجة الحرارة معدّلة. هناك ثلاث رسائل جديدة في صندوقك.»

الرسائل كانت جميعها رسمية. واحدة من قسم الاستقرار النفسي تذكّره بالموعد، وثانية من جهة عمله تبلغه بتعليق مؤقت لبعض صلاحياته «لأسباب إجرائية»، وثالثة بدون اسم مرسل تحتوي على جملة واحدة فقط:

«تحركاتك الأخيرة خارج النطاق المعتاد. ننصح بالعودة إلى الروتين.»

أغلق الرسائل دون الرد.

جلس على الأرض كما كان يفعل في الليالي الصعبة، ظهره إلى الجدار. أخرج الدفتر الصغير من جيبه. الصفحات الأولى كانت مليئة بوصف الومضات: الأشجار، المطر، صوت الماء. الصفحة الأخيرة كانت فارغة. كتب فيها جملة واحدة بخط ثابت:

«الحديقة أيضًا كانت كذبة. البحث مستمر.»

في الأيام التالية بدأ يلاحظ التفاصيل الصغيرة.

في المصعد كان هناك دائمًا شخص يقف في الزاوية المقابلة، لا ينظر إليه مباشرة لكنه لا ينزل في أي محطة وسطى. في مركز البيانات حيث يعمل، وجد أن شاشته الرئيسية تعرض الآن رسالة خفيفة في الزاوية: «جميع الأنشطة تُسجَّل لأغراض الجودة». وعندما ذهب إلى السوق المركزي ليشتري طعامًا إضافيًا، رفض النظام قبول بصمته في إحدى البوابات الجانبية للمرة الأولى، واضطر إلى استخدام المسار الرئيسي المراقَب بالكامل.

كانوا لا يلاحقونه جهرًا.

كانوا فقط يجعلون العالم أضيق حوله ببطء.

في الليلة الثالثة بعد عودته، جاءت الومضة من جديد.

هذه المرة لم تكن نهرًا ولا مطرًا. كان يقف على حافة عالية، والرياح حقيقية تضرب وجهه، وأمامه امتداد أخضر لا ينتهي تحت سماء متغيرة الألوان. عندما مدّ يده لم يلمس ماءً هذه المرة... لمس ترابًا. ترابًا خشنًا وحقيقيًا ينفرط بين أصابعه.

استيقظ وهو يقبض على الهواء.

نظر إلى كفه في الظلام، ثم إلى الجدران الرمادية من حوله.

همس بصوت خافت لكنه حاسم:

«راقبوا كما شئتم.
أنا لن أتوقف.»

ثم قام، وأشعل الضوء، وبدأ يخطط للخطوة التالية...
هذه المرة بوعي كامل أنه لم يعد يبحث فقط عن شيء حقيقي.
بل يبحث وهو مطارد.

الفصل الخامس عشر
الشائعات والأرشيف

بدأ يبحث بطريقة مختلفة هذه المرة.

لم يعد يعتمد على الومضات الليلية وحدها، ولا على الحدائق العمودية أو الأسواق السوداء التي تبيع روائح مزيفة. صار يبحث عن أثر مكتوب، عن تسجيل قديم، عن أي شيء أفلت من عمليات المحو الممنهجة التي طالت تاريخ ما قبل الغطاء البلوري.

في مركز البيانات حيث يعمل، استغل الثغرات الصغيرة في نظام المراقبة. صلاحياته كانت معلّقة جزئيًا، لكن الوصول إلى الأرشيفات العامة القديمة ما زال متاحًا لمن يعرف كيف يبحث. قضى ساعات طويلة بعد انتهاء الدوام الرسمي أمام الشاشات، يتنقل بين مجلدات مهملة وتقارير ممسوحة جزئيًا.

معظم ما وجده كان مملًا أو محذوفًا: جداول مناخية قديمة، خرائط للطبقات الأولى من المدينة، قرارات بإنشاء الغطاء البلوري «لحماية ما تبقى من الغلاف الجوي». لكن في زاوية من تقرير يعود إلى تسعين عامًا، وجد جملة واحدة لم تُمسح بالكامل:

«... بعض المناطق الطرفية ما زالت تظهر قراءات غير مستقرة... يُنصح بالمزيد من المسح قبل الإغلاق النهائي...»

القراءات غير المستقرة.

كتب الجملة في دفتره، وأغلق الملف قبل أن يُرصد وقت بقائه الطويل.

الليلة التالية نزل إلى الطبقة الثامنة من جديد، إلى الأزقة التي لا تظهر على الخرائط الرسمية. هناك كان يبيعون أكثر من الروائح. كانوا يبيعون ذاكرة.

دخل محلًا صغيرًا بلا لافتة، الجدران فيه مغطاة بشاشات قديمة وأجهزة تخزين خارجية. الرجل الجالس خلف الطاولة كان في الخمسين تقريبًا، عيناه ذكيتان ومتعبتان.

قال الشاب دون مقدمات:

«أبحث عن أي شيء عن ما قبل الغطاء. خرائط، تسجيلات، إحداثيات... أي شيء لم يُنظَّف.»

الرجل نظر إليه طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة جانبية.

«كثيرون يبحثون عن الحنين. قليلون يدفعون ثمنه.»

دفع.

خرج بعد ساعة يحمل شريحة صغيرة مشفرة. في شقته فتحها بحذر عبر جهاز قديم غير متصل بالشبكة الرئيسية. ظهر تسجيل صوتي قصير، جودة رديئة، صوت امرأة تقول بلهجة قديمة:

«... خرجت المجموعة الثالثة منذ شهرين باتجاه القطاع الشمالي الغربي... الإحداثيات لم تُعتمد رسميًا... آخر إشارة وصلت تقول إنهم رأوا لونًا أخضر لا يشبه المحاكاة... ثم انقطع الاتصال...»

التسجيل توقف.

أعاد تشغيله ثلاث مرات.

«لون أخضر لا يشبه المحاكاة.»

في الأيام التالية جمع المزيد.

شائعة عن قافلة علمية اختفت قبل سبعين عامًا وهي تحاول الوصول إلى ما وراء الحدود الرسمية. خريطة ممزقة تظهر منطقة مظللة كُتب عليها بخط يدوي: «غير مصنفة — خطر محتمل أو أمل محتمل». شهادة رجل مسن في تسجيل آخر يدّعي أنه رأى في طفولته طائرًا حقيقيًا يحلق خارج الغطاء قبل أن يُغلق القسم الأخير.

كل قطعة كانت ضعيفة بمفردها.

لكنها معًا كانت تكوّن اتجاهًا.

في إحدى الليالي جلس على الأرض محاطًا بملاحظات وشريحات وتواريخ، ورسم خطًا تقريبيًا على ورقة: من المدينة → نحو الشمال الغربي → مناطق كانت تُسمى قديمًا «السهول العليا».

همس لنفسه:

«إذا كان هناك شيء حقيقي ما زال موجودًا... فهو هناك.»

ثم رفع رأسه إلى السقف الرمادي.

الكاميرا الصغيرة في الزاوية كانت تومض بضوء أحمر خافت كما تفعل دائمًا.

ابتسم ابتسامة باردة.

«سجلوا ما شئتم»، قال بصوت مسموع هذه المرة.

«أنا بدأت أجد الطريق.»

الفصل السادس عشر

الجماعة

جاء اللقاء بالصدفة... أو بما يشبه الصدفة في مدينة تُراقب كل شيء.

كان في الطبقة السادسة، في ممر جانبي خلف مركز تخزين قديم، يبحث عن بائع شرائح موعود، عندما اقتربت منه امرأة في أوائل الأربعين. شعرها قصير، وملابسها عادية تمامًا، لكن عينيها حملتا النظرة نفسها التي كان يراها في المرآة كل صباح: حنين مكتوم وغضب هادئ.

قالت بصوت منخفض دون أن توقف سيرها:

«الزهرة التي ذبلت في يدك... لم تكن الأولى.»

تجمد مكانه.

المرأة لم تتوقف. أضافت وهي تمر بجانبه:

«الطبقة الحادية عشرة، الممر الخلفي خلف وحدة التهوية الشمالية. بعد ثلاث ساعات. إذا كنت حقيقيًا... ستأتي. إذا كنت فخًا... فلا تكلف نفسك.»

ثم اختفت بين المارة.

تردد ساعة كاملة. الخوف كان منطقيًا: ربما كانت جزءًا من المراقبة، فخًا جديدًا بعد أن أصبح ملفه أكثر نشاطًا. لكنه تذكر التسجيل الصوتي، والخريطة الممزقة، واللون الأخضر الذي «لا يشبه المحاكاة». وفي النهاية ذهب.

الممر الخلفي كان ضيقًا ومظلمًا نسبيًا. في نهايته باب حديدي قديم نصف مفتوح. دخل.

الغرفة كانت صغيرة ومستودعة مهجورة. خمسة أشخاص يجلسون على صناديق معدنية: المرأة التي كلمته، ورجلان في منتصف العمر، وفتاة عشرينية، ورجل مسن يبدو أكبر من العجوز الذي التقاه في الحديقة. لا أحد ابتسم عند دخوله.

المرأة قالت فقط:

«اجلس. وقل لنا ماذا وجدت.»

بدأ يحكي. عن الومضات، عن الطبيب، عن الأعماق، عن الحديقة الزائفة والروبوت الليلي، عن الشريحة والتسجيل والإحداثيات التقريبية نحو الشمال الغربي. بينما يتكلم كان يراقب وجوههم. لم يبدُ عليهم الاندهاش. بدا عليهم التعرف.

عندما انتهى، صمت الجميع لحظة. ثم تكلم الرجل المسن بصوت أجش:

«نحن نسمي أنفسنا أحيانًا "الباحثين"، وأحيانًا "المرضى الرافضين". النظام يسميها اضطراب حنين غير تكيفي... تمامًا كما قال لك الطبيب. بعضنا هرب من العلاج الإجباري، وبعضنا فُصل من عمله، وبعضنا فقد أفراد عائلته بعد أن رُفعوا إلى "مراكز إعادة التأهيل".»

الفتاة العشرينية أضافت وهي تنظر إلى يديها:

«نبحث منذ سنوات. معظم الطرق مسدودة. معظم الشائعات كاذبة. لكن بين الحين والآخر يظهر شيء... مثل الذي وجدته أنت.»

المرأة التي جاءته في الممر مدّت يدها وأعطته شريحة جديدة.

«هذه تكمّل ما عندك. إحداثيات أدق قليلًا، وتسجيل لرحلة خرجت قبل اثنتين وأربعين سنة. آخر إشارة جاءت من نقطة تبعد ثلاثمائة كيلومتر شمالًا غربًا عن حدود الغطاء الرسمية. بعدها... صمت.»

الشاب أخذ الشريحة. شعر للمرة الأولى منذ زمن طويل أنه ليس وحيدًا تمامًا في هذا البحث.

الرجل المسن قال وهو ينهض بصعوبة:

«نحن لا نثق بأحد بسهولة. والمدينة تعاقب التجمعات من هذا النوع. إذا قررت أن تمشي معنا... فستتعلم كيف تتحرك دون أن تُرى، وكيف تميز الفخ من الخيط الحقيقي. إذا قررت أن تمشي وحدك... فاحفظ ما سمعته الليلة وانسَ وجوهنا.»

نظر الشاب إلى الوجوه الخمسة واحدًا واحدًا.

ثم قال بهدوء:

«لن أنس.

وسأمشي معكم...

ما دام الطريق يؤدي إلى شيء حقيقي.»

المرأة أومأت برأسها مرة واحدة.

«حسنًا.

من الآن فصاعدًا... أنت واحد منا.

والنظام سيلاحظ ذلك عاجلًا أم آجلًا.»

خارج المستودع كان الليل الاصطناعي قد اكتمل.

الشاب خرج مع الآخرين في أوقات متفرقة، كل واحد في اتجاه مختلف.

وهو يسير في الممرات المضيئة نحو طبقته، كان يشعر أن الحمل على كتفيه صار أثقل...

وأوضح اتجاهًا في الوقت نفسه.

لأول مرة لم يكن يبحث وحده.

ولأول مرة كان يعرف أن الثمن قد يكون أعلى بكثير مما تخيل.

الفصل السابع عشر

المطاردة الهادئة

لم يأتِ الضجيج دفعة واحدة.

جاء على شكل تفاصيل صغيرة تتراكم يومًا بعد يوم، حتى صار الهواء نفسه أثقل.

في الصباح التالي للقائه بالجماعة، وجد رسالة جديدة على شاشته الرئيسية قبل أن يغادر الشقة:

«استدعاء إلزامي إلى مركز الاستقرار النفسي — الطبقة التاسعة والعشرون — خلال 24 ساعة. عدم الحضور يُعتبر مخالفة من الدرجة الثانية.»

تجاهلها.

في مركز البيانات رُفض دخوله من البوابة الجانبية التي كان يستخدمها عادة. اضطر إلى المرور عبر البوابة الرئيسية حيث تُمسح البصمات والوجه والحرارة الجسدية بدقة أعلى. على شاشته ظهرت رسالة جديدة بلون برتقالي:

«صلاحيات الوصول إلى الأرشيفات التاريخية — معلّقة مؤقتًا لأغراض المراجعة.»

حاول الدخول إلى الملفات القديمة التي كان يراجعها. النظام رفض بلطف مهني: «عذرًا. المحتوى غير متاح حاليًا.»

في المصعد لاحظ الرجل نفسه الذي كان يقف في الزاوية المقابلة قبل أيام. هذه المرة كان معه رجل آخر. كلاهما يرتدي بدلة رمادية داكنة متطابقة. لم ينظرا إليه، لكنهما نزلا في المحطة نفسها التي نزل فيها، ومشيا خلفه مسافة قصيرة قبل أن يتفرقا.

في الليل عاد إلى المستودع القديم في الطبقة الحادية عشرة. وجد المرأة والفتاة العشرينية فقط. الوجوه الثلاثة الأخرى غابت.

المرأة قالت دون مقدمات:

«اثنان من المجموعة نُقلا أمس إلى مركز إعادة التأهيل. واحد منهما كان الرجل المسن. الرسالة الرسمية تقول إنه طلب العلاج طواعية. نحن نعرف أنه لم يطلب.»

الشاب شعر ببرودة تسري في عموده الفقري.

«هل يتبعونني أنا؟»

«يتبعوننا جميعًا الآن. وجودك معنا سرّع الوتيرة. النظام لا يحب أن تتجمع الحالات المتشابهة.»

خرجت من المستودع بحذر أكبر هذه المرة. غيرت مسارها ثلاث مرات، وركبت مصعدين مختلفين، ومشت في ممرات خلفية قبل أن تصل إلى طبقتها. ومع ذلك، عندما فتحت باب الشقة، كانت الرسالة الجديدة بانتظارها:

«تم رصد نشاط غير معتاد في محيطك. ننصح بالالتزام بالروتين المحدد وتجنب التجمعات غير المصرح بها.»

جلس على الأرض، الدفتر مفتوح أمامه. الصفحات التي كتب فيها عن الجماعة والإحداثيات بدت فجأة خطرة. مزق الصفحة الأخيرة ببطء، وقطعها إلى قطع صغيرة، ثم رماها في وحدة التخلص التي تُحوّل كل شيء إلى رماد غير قابل للاستعادة.

في اليوم التالي جاء الاستدعاء الثالث، هذه المرة عبر مكبر صوت صغير في الممر أمام بابه:

«المواطن... يُرجى التوجه فورًا إلى أقرب نقطة استقرار. المقاومة تُعتبر تصعيدًا.»

لم يخرج.

أغلق الباب الإلكتروني بتعيين يدوي، وقطع اتصال النظام الرئيسي بالشبكة قدر الإمكان. جلس في الظلام النسبي، يسمع صوت المدينة البعيد من خلال الجدران: همس المصاعد، أزيز الهواء الصناعي، وخطوات منتظمة في الممر بين حين وآخر.

بعد ساعات طويلة جاء صوت طرق هادئ على الباب.

ليس عنيفًا. فقط منتظم وصبور.

ثم صوت رجل يتكلم بهدوء من الخارج:

«نحن نعرف أنك داخل. نعرف أيضًا أنك التقيت بآخرين. الأمر لم يعد متعلقًا بعلاج نفسي فقط. افتح الباب... أو سنفتحه.»

الشاب لم يتحرك.

يده كانت تمسك بالشريحة التي أعطته إياها المرأة، الشريحة التي تحمل الإحداثيات الأدق والتسجيل الأخير.

نظر إلى النافذة الوهمية السوداء، ثم إلى الجدران التي كانت تحميه يومًا وتحبسه الآن.

همس لنفسه، والصوت بالكاد مسموع:

«انتهى وقت الحذر البطيء.»

والطرق على الباب استمر...

هادئًا،

ومنتظمًا،

وكأنه يعدّ الثواني قبل أن تُكسر المسافة الأخيرة بينه وبين النظام.

الفصل الثامن عشر

الدليل الصغير

الطرق على الباب توقف بعد منتصف الليل.

لم يقتحموا. اكتفوا بأن يتركوه يعرف أنهم هناك، ثم انسحبوا بصمت. في الصباح وجد رسالة جديدة أكثر هدوءًا وخطورة:

«المهلة النهائية للحضور الطوعي: 72 ساعة. بعد ذلك سيتم تنفيذ إجراء النقل الإلزامي.»

ثلاث أيام.

لم يعد لديه ترف الانتظار.

خرج من الشقة قبل الفجر الإلكتروني، مستخدمًا مسارًا خلفيًا تعلمه من الجماعة. وصل إلى المستودع في الطبقة الحادية عشرة ليجد المرأة وحدها هذه المرة. الوجهان الآخران اختفيا أيضًا.

مدّت إليه يدها دون كلام. في كفها كانت هناك علبة معدنية صغيرة مستديرة، بحجم قبضة اليد تقريبًا، مغلقة بإحكام.

«هذا آخر ما استطعنا إخراجه قبل أن يُغلق المصدر»، قالت. «الرجل المسن أخفاه لسنوات. قال إنه جاء من الرحلة التي انقطع اتصالها قبل اثنتين وأربعين سنة. لم يفتحه أحد منا. كنا ننتظر اللحظة المناسبة... أو الشخص المناسب.»

أخذ العلبة. كانت أثقل مما تبدو، وباردة.

فتحها بحذر داخل شقته بعد أن عاد متخفيًا.

في الداخل كانت هناك ثلاث أشياء فقط:

أولًا: شريحة بيانات قديمة جدًا، من نوع لم يعد يُنتج منذ عقود.

ثانيًا: كيس شفاف صغير يحتوي على مادة بنية داكنة تشبه التراب.

ثالثًا: ورقة مطوية صفراء كُتب عليها بخط يدوي غير منتظم إحداثيات ورقم تسلسلي قصير.

شغّل الشريحة على الجهاز المعزول.

ظهر تسجيل صوتي قصير، جودة رديئة جدًا، يقطعه التشويش. صوت رجل يتنفس بصعوبة، والرياح خلفه عالية:

«... وصلنا. اللون حقيقي. التراب... التراب تحت أيدينا لا يشبه أي مركّب. وهناك صوت... انتظروا...»

ثم جاء الصوت.

صوت طائر.

ليس التسجيل المتكرر الذي يُشغَّل في الحدائق العمودية. كان صوتًا خامًا، غير منتظم، يرتفع وينخفض بطريقة لا يمكن لبرنامج أن يعيدها بنفس العيوب الصغيرة. غناء قصير وحاد، ثم صمت، ثم جواب أبعد من طائر آخر.

التسجيل انقطع فجأة بعد اثنتي عشرة ثانية.

أعاد تشغيله أربع مرات. في كل مرة كان الصدر يضيق ثم يتسع.

فتح الكيس الشفاف.

المادة البنية انفرطت بين أصابعه. خشنة. غير متجانسة. بعض الحبيبات أكبر من غيرها. رائحة خفيفة صعدت: ليست الرائحة الكيميائية المثالية، بل شيء أعمق، فيه أثر رطوبة قديمة وأثر جذور وأثر وقت.

أغلق عينيه.

للحظة كان واقفًا من جديد على ضفة النهر في ومضاته، لكن هذه المرة كان التراب حقيقيًا تحت أصابعه، والصوت الذي سمعه في التسجيل ما زال يرن في أذنيه.

فتح عينيه ونظر إلى الورقة.

الإحداثيات كانت أوضح من كل ما جمعه سابقًا. نقطة تبعد حوالي ثلاثمائة وعشرين كيلومترًا شمالًا غربًا عن آخر حدود رسمية للغطاء البلوري. بجانبها جملة واحدة مكتوبة بخط متعب:

«إذا كان هناك شيء حقيقي... فهو هنا. أو كان هنا.»

جلس الشاب على الأرض محاطًا بالعلبة الفارغة والشريحة والكيس الصغير والورقة.

الأمل عاد بقوة عنيفة كادت تؤلمه.

ومع الأمل جاء الشك نفسه الذي رافقه منذ البداية: ماذا لو كانت هذه أيضًا جزءًا من اللعبة؟ فخًا أكثر إتقانًا؟ تربة مركّبة بتكنولوجيا قديمة وصوت طائر مُعاد بناؤه من بيانات محفوظة؟

أمسك حفنة التراب مرة أخرى وقربها من وجهه.

الرائحة لم تكن مثالية.

كانت ناقصة.

وكانت حية بطريقة ما.

همس، والصوت يرتجف للمرة الأولى منذ أيام:

«هذا... أقرب شيء إلى الحقيقة لمسته يداي.»

ثم رفع رأسه إلى الجدار حيث تومض الكاميرا بضوئها الأحمر الخافت.

ابتسم ابتسامة صغيرة باردة ومصممة.

«ثلاث وسبعون ساعة»، قال بصوت مسموع.

«تكفيني.»

وأغلق العلبة على الدليل الصغير...

كأنه يغلق على آخر خيط ضوء

في مدينة لا تريد للضوء الحقيقي

أن يوجد.

الفصل التاسع عشر

الاختيار

بقي يوم واحد من المهلة.

الشاب جلس في الشقة المعتمة، العلبة المعدنية الصغيرة أمامه مفتوحة. التراب ما زال بين أصابعه، والشريحة والتسجيل والإحداثيات موضوعة على الأرض كأنها أدلة في محاكمة صامتة.

الرسالة الأخيرة من النظام وصلت عند الفجر:

«المواطن... تبقّى 26 ساعة على تنفيذ إجراء النقل الإلزامي. الحضور الطوعي ما زال متاحًا ويُحتسب لصالحك.»

قرأها وأغلقها.

في الظهيرة جاءت المرأة من الجماعة. دخلت من الباب الخلفي الذي علّمته كيف يُفتح يدويًا، وجلست على الأرض أمامه دون أن تطلب إذنًا.

نظرت إلى العلبة ثم إليه.

«قررت؟»

لم يجب فورًا. كان يقلّب حبة تراب بين إصبعيه كأنه ما زال يتحقق من وجودها.

أخيرًا قال:

«أمامي طريقان. أبقى هنا... أتعمق أكثر مع من تبقى منكم، أبحث عن شرائح أخرى، عن أسماء، عن ثغرات أوسع في النظام. أو أخرج الآن نحو هذه الإحداثيات... وأعرف أنني قد لا أعود.»

المرأة أملت رأسها قليلاً.

«إذا بقيت، سينقلونك خلال ساعات. مراكز إعادة التأهيل لا تعيد أحدًا كما كان. رأينا ذلك مرات. أما إذا خرجت... فالمركبات الهوائية الشخصية مراقَبة، والحدود الرسمية مغلقة منذ عقود. ستحتاج إلى مسار غير مسجّل، ووقود إضافي، وحظًا لم يعد أحد يؤمن به.»

«هل خرج أحد من قبلي؟»

صمتت لحظة أطول من المعتاد.

«خرج اثنان نعرفهما. واحد عاد بعد أسبوعين... أو بالأحرى أعادوه. كان فارغ العينين ويتحدث عن "العلاج الناجح". والثاني... لم يعد. لا نعرف إن وصل أو مات في الطريق أو التقطته دورية بعيدة.»

الشاب نظر إلى التراب في كفه.

«هذا الشيء... لا يشبه أي مركّب لمسته من قبل. والصوت في التسجيل لا يعيد نفسه. إذا كان هناك احتمال واحد في الألف أنه حقيقي... فأنا لن أموت هنا وأنا أتساءل.»

المرأة أخرجت من جيبها شريحة رفيعة ورقاقة طاقة صغيرة.

«هذه خريطة محدثة للمسارات القديمة غير المستخدمة. وهذه طاقة إضافية تكفي لرحلة باتجاه واحد إذا حافظت على السرعة المنخفضة. لن أعطيك أملًا كاذبًا. الاحتمال الأكبر أنك لن تجد شيئًا... أو أنك لن تصل.»

أخذ الشريحتين ووضعها بجانب العلبة.

ثم سألها السؤال الذي كان يدور في رأسه منذ ساعات:

«لماذا تساعديني؟ كان يمكن أن تأخذي الدليل وتذهبي أنت.»

ابتسمت للمرة الأولى منذ أن عرفها. ابتسامة صغيرة متعبة.

«لأنني جربت البقاء سنوات طويلة. راقبت أصدقائي يُؤخذون واحدًا تلو الآخر. وصلت إلى مرحلة لم يعد فيها لدي ما أخسره هنا... إلا أن أرى شخصًا آخر يحاول حتى النهاية. إذا وصلت إلى شيء حقيقي... فتذكرنا. وإذا لم تصل... فعلى الأقل متّ وأنت تتحرك في الاتجاه الصحيح.»

وقفت استعدادًا للخروج.

عند الباب التفتت إليه مرة أخيرة.

«القرار قرارك. لكن الوقت ينفد. إذا كنت ستخرج... فافعل ذلك الليلة. بعد غد لن يعود هناك باب لتفتحه بنفسك.»

ثم اختفت في الممر الخلفي.

بقي الشاب وحيدًا.

حمل العلبة، والشريحتين، ورقاقة الطاقة. وقف في وسط الغرفة الرمادية التي عاش فيها سنوات، ونظر إلى جدرانها للمرة الأخيرة.

الومضة جاءت هذه المرة وهو مفتوح العينين.

رأى التراب الحقيقي تحت قدميه، والسماء المتغيرة فوقه، وصوت الطائر يتردد في الهواء دون تشويش. ثم اختفى كل شيء وبقيت فقط الجدران والكاميرا التي تومض بالأحمر.

همس إلى الغرفة الفارغة:

«لن أبقى لأُمحى بهدوء.»

ثم فتح الباب الخلفي وخرج...

حاملًا معه الدليل الصغير

والقرار الذي لم يعد قابلاً للتراجع.

الفصل العشرون

الأفق المفتوح

خرج قبل أن يكتمل الفجر الإلكتروني.

المسارات الخلفية التي أعطته إياها المرأة كانت ضيقة وقديمة، بعضها مهجور منذ عقود. سار ساعات طويلة متنقلًا بين طبقات وممرات لا تظهر على الخرائط الرسمية، حتى وصل إلى منصة مركبات مهجورة في الطرف الشمالي الغربي من المدينة.
المركبة التي وجدها هناك كانت قديمة وطرازها خارج الخدمة الرسمية منذ زمن، لكنها ما زالت تعمل عندما وصل رقاقة الطاقة الإضافية.

ارتفع ببطء فوق الأضواء الرمادية.

المدينة تحتَه كانت هائلة وصامتة في هذه الساعة، كأنها كائن نائم لا يعرف أن أحد أبنائه يحاول الإفلات من بين أصابعه. الغطاء البلوري لمع فوقه كسقف زجاجي لا نهاية له. اخترقه من نقطة ضعف قديمة كانت مذكورة في الخريطة، نقطة لم تُغلق بإحكام كافٍ بعد آخر توسعة.

بعدها صار الأفق مفتوحًا.

لا أضواء مدينة، لا أعمدة صلب، لا ضباب صناعي. فقط امتداد رمادي داكن في البداية، ثم تدريجيًا شيء يشبه التدرج الطبيعي للضوء. الطيران استمر ساعات. الوقود ينقص ببطء. الشاشات أمامه كانت شبه فارغة؛ لا إشارات رسمية، لا خرائط محدّثة، لا تحذيرات. فقط الإحداثيات التي نسخها من الورقة الصفراء، والرقم الذي يقترب منها تدريجيًا.

توقف عند الغروب الحقيقي الأول الذي رآه في حياته.

الشمس — إن كانت شمسًا حقيقية — كانت تنزل خلف خط بعيد بلون برتقالي غير مبرمج. الهواء الذي تسرب إلى المركبة عندما فتح ثغرة صغيرة في الزجاج كان مختلفًا. فيه جفاف، وفيه شيء يشبه الغبار، وفيه برودة لا تُعدَّل تلقائيًا.

نزل من المركبة.

الأرض تحت قدميه كانت صلبة ومغطاة بمادة تشبه التراب المجروف بالرياح. لا عشب. لا أشجار. لا زهور تذبل عند لمسها. فقط امتداد واسع مفتوح، وخط أفق لا يعترضه غطاء بلوري.

أخرج العلبة المعدنية.

فتح الكيس ووضع حفنة من التراب الذي حمله إلى جانب التراب الذي يقف عليه. اللون متقارب. الملمس متقارب. الرائحة... قريبة جدًا.

رفع رأسه.

في الأفق البعيد، أبعد من أن يُجزم، كان هناك تغيّر طفيف في اللون. شيء يميل إلى الأخضر الداكن، أو ربما مجرد خداع ضوء الغروب. الرياح هبّت حاملة صوتًا خافتًا... ربما صفير الهواء بين تضاريس بعيدة، أو ربما شيئًا آخر لم يعد يعرف كيف يسميه.

جلس على الأرض.

التراب الحقيقي — أو ما يبدو حقيقيًا — يلتصق بأصابعه. السماء فوقه تتغير ببطء دون أن يطلب منها أحد. وخلفه، على مسافة مئات الكيلومترات، كانت المدينة ما تزال تشتعل بأضوائها الأبدية وتراقب ملفًا لم يعد موجودًا داخل حدودها.

فتح الدفتر الصغير للمرة الأخيرة.

كتب جملة واحدة فقط:

«وصلت إلى المكان الذي قد يكون البداية...

أو النهاية.

البحث لم ينتهِ.»

ثم أغلق الدفتر ووضعه على ركبته.

الرياح ازدادت قليلاً.

اللون في الأفق البعيد لم يقترب ولم يختفِ.

هو لم يقم ليواصل السير فورًا،

ولم يعد إلى المركبة.

بقي جالسًا،

يحدق في المسافة المفتوحة،

ويتنفس هواءً لا يعرف إن كان حرًا أم مجرد مساحة أوسع من القفص.

والسؤال الذي حمله منذ البداية بقي معلقًا في الهواء معه...

خفيفًا،

وعنيدًا،

ومفتوحًا

مثل الأفق نفسه.

الفصل الحادي والعشرون

الخوذة

جلس طويلاً على التراب الذي بدا حقيقياً، والرياح تمسح وجهه ببرودة لم يعرفها من قبل. الأفق البعيد ما زال يحمل ذلك اللون الأخضر الداكن الغامض، لا يقترب ولا يبتعد. الشمس الحقيقية — أو ما ظنها كذلك — غابت تماماً، وحلّ ليل مفتوح بلا أضواء صناعية.

سمع خطوات بطيئة خلفه.

التفت. كان رجلاً عجوزاً، أطول مما بدا في البداية، يرتدي رداءً بسيطاً من قماش خشن، وشعره الأبيض الطويل مربوط بخيط جلدي. عيناه صافيتان بشكل غريب، كأنهما لم تعرفا الضوء الاصطناعي قط. في يده صندوق معدني صغير قديم، ليس من طراز المدينة.

قال العجوز بصوت هادئ كأنه يكمل حواراً لم ينقطع:

«وصلت أخيراً. كنت أنتظر من يخرج من تحت الغطاء ويحمل في يده تربة حقيقية.»

الشاب لم يتحرك. فقط رفع العلبة المعدنية قليلاً.

«من أنت؟»

ابتسم العجوز ابتسامة قصيرة:

«آخر من يحفظ ما نُسي. أو أول من يحاول أن يعيده. تعال.»

قام الشاب. تبعه مسافة قصيرة حتى وصلا إلى كوخ حجري صغير مبني من حجارة غير منتظمة، ليس فيه أي أثر للمعدن أو البلاستيك. داخل الكوخ كانت هناك طاولة خشبية، ومصباح زيتي، ورفوف عليها كتب ورقية حقيقية.

أخرج العجوز من الصندوق خوذة قديمة من معدن داكن، مغطاة بنقوش باهتة تشبه الكتابة الهيروغليفية المختلطة بحروف يونانية ولاتينية. قال:

«هذه ليست للعلاج. هذه للذاكرة. ضعها.»

تردد الشاب لحظة، ثم ارتداها.

في البداية لم يحدث شيء. ثم انفتح شيء داخل رأسه كباب ثقيل.

رأى مدناً لم يرها من قبل.

روما القديمة بأعمدتها الرخامية وساحاتها الواسعة، والتماثيل التي كانت تنظر إلى السماء بعيون مفتوحة. أثينا بمعابدها البيضاء على التلال، والمدرجات التي كانت تمتلئ بالناس يتحدثون عن الفلسفة والجمال. مصر الفرعونية بمعابدها الضخمة وأعمدتها المنقوشة، والنيل يجري ببطء حاملاً المراكب الشراعية تحت سماء صافية. ثم مدن النهضة الإيطالية: فلورنسا بقبابها وكنائسها المزخرفة، والقصور التي كانت الجدران فيها تروي قصصاً بالألوان. والروكوكو الفرنسي بزخارفه الدقيقة والحدائق الهندسية التي كانت الأشجار فيها تُشذَّب لا لتُقتل بل لتُجمَّل.

رأى قرى أوروبية حجرية، وأسواقاً مفتوحة، وجسوراً قوسية فوق أنهار صافية، وأشجاراً عتيقة جذوعها أسمك من أجساد الرجال، تظلل الشوارع لمئات السنين.

ثم رأى كيف انهار كل ذلك.

رأى الأسمنت يزحف كمرض رمادي. رأى الجشع الرأسمالي يحوّل المدن إلى كتل متشابهة بلا روح، والمباني العالية التي تمحو الأفق. رأى في مصر هدم القباب الأثرية والمساجد القديمة والكنائس والحارات، وقطع الأشجار السميكة العريقة التي كانت أقدم من الجمهورية نفسها، لتحل محلها كتل خرسانية باهتة في عصر سُمّي باسم من حكم. رأى التطرف الديني — الإخوان والسلفيين والخمينيين — يرفع شعارات ويهدم ما يخالف رؤيته الضيقة، والمبشرين والصهاينة يفعلون الشيء نفسه في أماكن أخرى، كلٌّ يدّعي الحق المطلق ويمحو ما سبقه. ثم جاءت الروبوتات والبيئة الصناعية بعد أن دمّروا الطبيعة بجشع رأس المال وتطرف العقائد، حتى لم يبقَ إلا الغطاء البلوري والهواء المعدّل والطبقات الرمادية.

انزعت الخوذة. كان يتنفس بصعوبة، وعيناه ممتلئتين بدموع لم يعرف مصدرها.

العجوز قال بهدوء:

«الآن تعرف ما فُقد. وما يمكن أن يُعاد.»

الفصل الثاني والعشرون

الطريق إلى المدن المعادة

في الصباح التالي جاء آخرون.

كانوا ثلاثة رجال وامرأة، وجوههم تحمل آثار شمس حقيقية لا ضوءاً مبرمجاً. لم يتكلموا كثيراً. أعطوه ماءً من قربة جلدية، وطعاماً بسيطاً من خبز حقيقي وفاكهة لها طعم، ثم ساروا معه نحو الشرق.

ساروا ساعات عبر أرض جافة في البداية، ثم بدأت تظهر تلال خضراء حقيقية، وأشجار ذات جذوع غليظة وأوراق تتحرك مع الريح لا مع برنامج. سمع لأول مرة صوت طيور لا يتكرر بنفس اللحن كل سبع دقائق.

وصلت المجموعة إلى وادٍ واسع. وهناك رآها.

مدن وقرى صغيرة أُعيد بناؤها على الطرز القديمة.

أعمدة دوريكية ويونية كورنثية ترتفع من جديد. قباب بيزنطية وعثمانية مرممة بعناية. معابد فرعونية مصغرة بأعمدتها المنقوشة. قصور نهضة إيطالية بنوافذها المقوسة وزخارفها الدقيقة. منازل روكوكو بواجهاتها المنحوتة والحدائق التي أمامها. شوارع مرصوفة بحجارة، لا أسمنت رمادي. أشجار عتيقة أعيد غرسها أو نجت، جذوعها سميكة وظلالها واسعة.

مرّ بنهر حقيقي. الماء يجري، يحمل أوراقاً وأغصاناً صغيرة، وله صوت متغير. ثم بحيرة صافية تنعكس فيها الجبال البعيدة. والجبال نفسها كانت هناك، صخورها عارية في بعض المواضع ومغطاة بالغابات في مواضع أخرى، لا أبراج ولا أنابيب شفافة تعترض الأفق.

الشاب وقف طويلاً على جسر حجري قوسي، ينظر إلى الماء تحته.

قال أحد الرجال الذين رافقوه:

«هذه ليست الجنة. هذه محاولة. بعضنا نجا من الغطاء قبل عقود، وبعضنا وُلد هنا. نعيد بناء ما يمكن إعادة بنائه بالحجارة والخشب والمعرفة القديمة. لا رأسمالية تبتلع كل شيء، ولا تطرف ديني يمحو ما سبقه، ولا روبوتات تقرر ما يُزرع وما يُقطع.»

المرأة أضافت وهي تشير إلى صف من الأشجار السميكة:

«هذه الجذوع نجت لأنها كانت بعيدة. قطعوا الكثير منها في المدن القديمة بحجة التطوير أو التطهير أو الربح. هنا نزرع ونحرس.»

الفصل الثالث والعشرون

الذاكرة الكاملة

في الليلة التالية جلس الشاب مع العجوز الحكيم من جديد أمام نار حقيقية. اللهب يتحرك بشكل غير منتظم، والدخان يصعد إلى سماء مرصعة بنجوم لم تبرمجها أي شاشة.

قال العجوز:

«الخوذة أرتك الصورة. الآن عليك أن تعيشها. العالم القديم لم يكن مثالياً. كان فيه ظلم وحروب وطبقية. لكن فيه روحاً. فيه مبانٍ صُنعت لتدوم قروناً، لا لتُهدم بعد عشرين سنة. فيه أشجار أقدم من الدول. فيه أنهار لم تُحوَّل إلى مجارٍ صناعية.»

الشاب نظر إلى يديه اللتين لمستا التراب الحقيقي والماء الحقيقي.

«لماذا دُمّر كل ذلك؟»

العجوز أطرق:

«الجشع أولاً. الرأسمالية التي رأت في كل شجرة خشباً للبيع، وفي كل حي تاريخي أرضاً لمشروع استثماري. ثم التطرف: من رفع شعار الدين ليمحو تماثيل أو قباباً أو كتباً، ومن رفع شعار الرسالة ليمحو حضارات أخرى، ومن رفع شعار الأرض الموعودة ليمحو قرى وتاريخاً. ثم جاء عصر الآلة والروبوتات بعد أن لم يعد هناك ما يُنقذ. بنوا الغطاء ليحموا ما تبقى من هواء، لكنهم حموا أيضاً النظام الذي دمّر كل شيء.»

صمت قليلاً ثم أضاف:

«أنت خرجت. هذا يكفي للبداية. الباقون ما زالوا تحت الرمادي. بعضهم ينتظر إشارة. بعضهم نسي حتى أنه ينتظر.»

الفصل الرابع والعشرون

النهوض

في الصباح التالي وقف الشاب على تل يطل على إحدى المدن المعادة. الأعمدة الرخامية تلمع في ضوء الشمس الحقيقي. الأشجار تتحرك. النهر يلمع. الجبال بعيدة وواضحة.

لأول مرة منذ أن فتح عينيه في الطبقة السابعة عشرة، شعر أن الهواء الذي يتنفسه ليس مادة محسوبة، بل شيء حي.

التفت إلى من رافقوه.

قال بصوت هادئ لكنه ثابت:

«لن أبقى هنا فقط لأتذكر. سأعود إلى الحدود. سأحمل معهم ما رأيته. التراب، والصوت، وصورة الأعمدة والأشجار. حتى لو لم يصدقوا... حتى لو أعادوهم إلى مراكز الاستقرار... سيعرفون أن هناك شيئاً حقيقياً ما زال موجوداً.»

العجوز ابتسم ابتسامة متعبة:

«هذا ما كنت أنتظره. الذاكرة وحدها لا تكفي. يجب أن تُعاد.»

الشاب نزل من التل. خلفه كانت المدن الكلاسيكية المعادة، والأنهار، والبحيرات، والجبال. وأمامه الأفق الذي جاء منه، والغطاء البلوري البعيد الذي ما زال يغطي ملايين الناس الذين يتنفسون هواءً مثالياً وخالياً من الروح.

مشى.

والبحث الذي بدأ بفراغ صغير في صدره صار الآن طريقاً مفتوحاً...

فيه حجارة قديمة،

وأشجار سميكة،

وماء يجري دون برنامج،

ووعد بأن ما دُمّر بالجشع والتطرف والآلة

يمكن أن يُبنى من جديد

إذا وُجد من يتذكر

ويمشي.

الفصل الخامس والعشرون

الجسد الحقيقي

في اليوم الثالث بعد وصوله إلى المدن المعادة، التقى بها.

كانت امرأة في أواخر العشرينات، شعرها الأسود الطويل مجدول ببساطة، وعيناها خضراوان صافيتان كأنهما انعكاس للبحيرة القريبة. اسمها «ليلى». وُلدت هنا، خارج الغطاء، ولم تعرف الهواء الصناعي ولا المكعبات الغذائية ولا الجدران الرمادية. كانت تعمل في ترميم الأعمدة الرخامية في الساحة الرئيسية للمدينة الصغيرة التي بُنيت على طراز النهضة المختلط بلمسات فرعونية ورومانية.

رآها أول مرة وهي تقف حافية القدمين على حجر أملس بجانب نافورة قديمة، الماء يتساقط خلفها، ويدها تمسك إزميلاً صغيراً تنظف به نقشاً على العمود. عندما التفتت إليه ابتسمت ابتسامة هادئة، كأنها تعرفه منذ زمن.

قال لها بعد أن تعارفا:

«أنا جئت من تحت الرمادي. كل شيء هناك مصنوع... حتى الرغبة.»

أجابته وهي تمسح يديها بالتراب النظيف:

«هنا الرغبة ليست مصنوعة. هنا الجسد يتذكر.»

في تلك الليلة، بعد أن غابت الشمس الحقيقية خلف الجبال، أخذته إلى مكان بعيد قليلاً عن البيوت: بستان زيتون عتيق يحيط بمعبد صغير أعيد بناؤه على الطراز الإغريقي، أعمدته بيضاء ناصعة، وأرضيته من رخام بارد، والعشب الأخضر الكثيف يمتد حوله حتى ضفة النهر.

وقفت أمامه تحت ضوء القمر، وخلعت ثوبها الكتاني ببطء. لم يكن هناك خجل. الجسد الذي ظهر كان حياً: بشرة سمراء دافئة، ثديان ممتلئان يرتفعان مع تنفسها، بطن ناعم، ووركاً عريضان، وشعر أسود كثيف بين فخذيها. قدماها حافيتان على العشب الرطب.

نظر إليها طويلاً، ثم خلع هو أيضاً ملابسه. للمرة الأولى في حياته وقف عارياً تماماً تحت سماء مفتوحة، الهواء يلامس كل شبر من جلده، والعشب يوخز باطن قدميه.

اقتربت منه. لمست صدره بأصابعها، ثم نزلت ببطء حتى أمسكت بعضوه الذي كان قد انتفض بقوة لم يعرفها من قبل. قالت بصوت خافت:

«هذا ليس برنامجاً... هذا أنت.»

ركعت أمامه على العشب. أخذته في فمها ببطء، لسانها يدور حول رأسه الرطب، ثم ابتلعته أعمق فأعمق حتى لمس حلقها. كان يئن، يداه في شعرها، وهو يشعر بالدفء الرطب الحقيقي لأول مرة. لعابها يسيل على خصيتيه، وأصابعها تضغطهما برفق. استمرت حتى شعر أنه على وشك الانفجار، فرفعها بلطف.

استلقت على ظهرها فوق العشب الكثيف بجانب العمود الرخامي. فتحت فخذيها واسعاً. كانت مبللة جداً، الشفرتان ورديتان ومنتفختين، والفتحة تضيق وتنفتح مع كل نفس. ركع هو بينهما، وبدأ يلعقها. طعمها مالح وحلو في آن، ورائحتها تراب وامرأة حية. أدخل لسانه عميقاً، ثم مصّ بظرها حتى ارتجف جسدها وصرخت بصوت مكبوت، ساقها تلتف حول رأسه.

عندما رفع رأسه كانت عيناه دامعتين من اللذة. صعدت عليه. أمسكت قضيبه المنتصب وأدخلته في نفسها دفعة واحدة حتى غاب كله داخلها. كانت ضيقة ودافئة ونابضة. بدأت تتحرك فوقه بحركة دائرية بطيئة أولاً، ثم أسرع، ثدياها يرتجفان أمام وجهه. أمسكهما بيديه وعصرهما، ثم مصّ الحلمتين حتى صرخت من جديد.

قلبها. وضعها على أربع فوق العشب، ركبها من الخلف بقوة. كل دفعة كانت تجعل مؤخرتها ترتطم ببطنه، وصوت ارتطام اللحم باللحم يختلط بصوت النهر القريب وحفيف أوراق الزيتون. أدخل إصبعين في فمها وهي تئن، وهي تدفع جسمها إلى الخلف لتأخذه أعمق. شعر بنفسه يصل إلى عنق رحمها.

ثم استلقت على ظهرها من جديد، ورفع ساقيها على كتفيه، ودخلها ببطء هذه المرة حتى شعرا كلاهما بكل سنتيمتر. نظر في عينيها وهو يتحرك داخلها، وقال بصوت مبحوح:

«أخيراً... شيء حقيقي.»

أجابته وهي تقبض عليه من الداخل:

«وأنا أيضاً.»

ازدادت سرعته. العرق يسيل على ظهره وعلى بطنها. العشب يلتصق بجلدهما. قدماهما الحافيتان تضربان الأرض. عندما وصل هو انفجر في داخلها بدفعات قوية ساخنة، وهي في اللحظة نفسها تشنجت حوله وصرخت باسمه، جسدها يرتجف تحته كأنها تُولد من جديد.

بقيا ملتصقين وقتاً طويلاً بعد ذلك. قضيبه ما زال داخلها ينبض، سائلُه يسيل ببطء على فخذيها وعلى العشب. قبلها على فمها قبلة عميقة، ثم همس:

«لم أكن أعرف أن الجسد يمكن أن يكون بهذا القدر من الحياة.»

ابتسمت ليلى، ومرت أصابعها على ظهره المتعرق:

«الآن عرفت. والطبيعة كلها تشهد.»

فوقهما كانت أعمدة المعبد الإغريقي تلمع في ضوء القمر، وخلفهما النهر يجري دون انقطاع، والأشجار السميكة تحرس المكان كأنها تعرف أن شيئاً مفقوداً منذ قرون قد عاد في تلك الليلة على العشب الرطب بين جسدَين عاريين حافيَين.